

## الجزء الثاني عشر

# بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا  
وَمُسْتَوْدَعَهَا ، كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ (٦) وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ  
وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ  
عَمَلًا ، وَلَئِنْ قُلْتِ إِنَّكُمْ مَبْعُوثُونَ مِنْ بَعْدِ الْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا  
إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ (٧) وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمْ الْعَذَابَ إِلَى أُمَّةٍ مَمْدُودَةٍ  
لَيَقُولَنَّ مَا يَجِدِسُهُ إِلَّا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا  
بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (٨)

### تفسير المفردات

الدابة: اسم لكل نَسَمَةٍ حية تَدْبُ على الأرض زَحْفًا، أو على قوائم ثنتين فأكثر،  
وغلب عرفا على ما يُرَكَّب من الخيل والبغال والحير ، والدبُّ والديبب : الانتقال  
الخفيف البطيء كدبيب الطفل والشيخ المسنِّ والعقرب والمستقر : مكان الاستقرار

من الأرض ، والمستودع : حيث كان مودعا قبل الاستقرار في صلب أورحم أو بيضة ،  
والعرش : مركز نظام الملك ومصدر التدبير ، والبلاء : الاختبار والامتحان ، والأمة :  
الطائفة أو المدة من الزمن كما قال تعالى : « وَادَّكَّرَ بَعْدَ آيَةٍ » وأصلها الجماعة من  
نوع واحد أو دين واحد أو زمن واحد ، مصروفا عنهم : أى مدفوعا ومحبوسا ، وحق :  
نزل وأحاط .

### المعنى الجملى

بعد أن بين في الآيات السالفة شمول قدرته تعالى لكل شيء وإحاطة علمه بما  
يسرون وما يعلنون بما فى الصدور- قفى على فى ذلك بذكر ما يهيمُّ الناس من آثار قدرته  
ومتعلقات علمه ، وهو ما يتعلق بحياتهم وشئونهم المختلفة ، ثم بذكر خلقه للعالم كله ،  
ومكان عرشه قبل هذا من ملكه ، وبلاء البشر بذلك ليظهر أيهم أحسن عملا ،  
ثم بعثه إياهم بعد الموت لينالوا جزاء أعمالهم مع إنكار الكفار لذلك وطلب استعجال  
العذاب الذى أوعدهم به مع بيان أنه واقع بهم لاحتمال إن أصروا على كفرهم .

### الايضاح

( وما من دابة فى الأرض إلا على الله رزقها ) أى وما من دابة من أى نوع من  
أنواع الدواب فى الأرض إلا على الله رزقها ، لافرق فى ذلك بين الجنة ( المكروبات )  
التي لا ترى بالأبصار ، وبين ضخام الأجسام ، والوسطى بين هذه وتلك ، وقد أعطى  
كلا خأقه المناسب لمعيشته ، ثم هداه إلى تحصيل غذائه بالفريزة والفطرة ، والله تعالى  
حكم فى خلق كل نوع منها ، فإن خفى علينا أمر خلق الحيات والسنانير ونحوها ، فلنا  
أن نقول مثلا إنه لولاها لضاقت الأرض بكثرة إحيائها ، أو لأنتنت من كثرة أمواتها .  
ومعنى كفايته تعالى لرزقها أنه سخره لها وهداها إلى طلبه وتحصيله كما قال :  
« رَبُّنَا الَّذِى أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى » وقد علم بنصوص القرآن وسنن

الله فى الخلق وأسباب الرزق أن مشيئته تعالى لا تكون إلا بمقتضى سننه فى ارتباط الأسباب بالمسببات مع الحكمة فى ذلك ، لأنه يأتيها بمحض قدرته سواء طلبته أم لا .  
( ويعلم مستقرها ومستودعها ) أى ويعلم حيث تستقر وتقيم ، وحيث كانت مودعة إلى حين ، ويرزقها فى كلتا الحالين .

( كلّ فى كتاب مبين ) أى كل الدواب وأرزاقها ومستقرها ومستودعها ثابت مرقوم فى كتاب مبين أى فى لوح محفوظ كتب الله فيه مقادير الخلق كلها .

( وهو الذى خلق السموات والأرض فى ستة أيام ) أى فى ستة أيام من أيام الله فى الخلق والتكوين وماشاء من الأطوار ، لامن أيامنا فى هذه الدار التى وجدت بهذا الخلق لاقبله ، فلا يصح أن تقدر أيام الله بأيامنا ، ويؤيد هذا قوله تعالى : « وَإِنَّ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ » وقوله : « تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ » .

وقد أثبت علماء الفلك أن أيام غير الأرض من الكواكب التابعة لنظام شمسنا تختلف عن أيام هذه الأرض فى طولها بحسب أجرامها وأبعادها وسرعتها فى دورانها ، وأن أيام التكوين بخلقته تعالى من الدخان الذى يعبرون عنه بالسديم شموسا مضئة تتبعها كواكب منيرة - يقدر اليوم منها بألوف الألوف من سنينا هذه .

( وكان عرشه على الماء ) أى وكان سرير ملكه فى أثناء هذا الطور من خلق هذا العالم أو من قبله على الماء ، وعرش الرحمن من عالم الغيب الذى لا ندركه بجواسنا ، ولا نستطيع تصويره بأفكارنا ، فلا نعلم كنهه استوائه عليه ولا صدور تدبيره لأمر هذا الملك العظيم ، ومن ثم روى عن أمّ سلمة رضى الله عنها وعن مالك وربيعة قولهم : الاستواء معلوم ، والسكيف مجهول .

ومن الآية نعلم أن الذى كان دون العرش من مادة الخلق قبل تكوين السموات والأرض هو الماء الذى جعله الله أصلا لخلق جميع الأحياء كما قال : « أَوَّلَ مَا يَرِ

الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيًّا أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ؟ « أى إنه يجب عليهم أن يعلموا أن السموات والأرض كانتا مادة واحدة متصلة لا فتق فيها ولا انفصال ، وهى ماتسمى لدى علماء الفلك السديم ، وبسميها القرآن الدخان ، ففتقناها بفصل بعضهما من بعض فكان منها ماهو سماء ومنها ماهو أرض ، وجعلنا من الماء كل شىء حى ، أفلا يؤمنون بأن الرب الذى خلق كل هذا هو الذى يُعبد وحده ولا يُشرك به شىء ، وأنه قادر على إعادة الخلق كما بدأه أول مرة ؟ .

والخلاصة — إن الماء أصل جميع الأحياء وهو الذى يتنزل إليه أمر التدبير والتكوين .

ثم علل خلقه بما ذكر ببعض حكمه الخاصة بالمسكفين المخاطبين بالقرآن فقال :  
( لِيُبْلِغَكُمْ أَيْكُمْ أَحْسَنَ عَمَلًا ) أى ليجعل ذلك ابتلاء واختبارا لكم فيظهر أئكم أحسن إتقاننا لما يعمله لنفسه وللناس ، ذاك أنه تعالى سخر لنا مافى الأرض وجعلنا مستعدين لإبراز ماأودعه فيها من منافع وفوائد مادية ومعنوية ، ومستعدين للإفساد والضرر ، ليجزى كل عامل بما يعمل ، وإِنما يتم ذلك ويظهر فى الآخرة .

( ولئن قلت إنكم مبعوثون من بعد الموت ليقولن الذين كفروا إن هذا إلا سحر مبين ) أى ولئن أخبرت هؤلاء المشركين أن الله سيبعثهم بعد مماتهم كما بدأهم ، ليجزيهم فيما بلاهم به كما قال : « لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى » ليجيئك الذين كذبوا بقاء الله قائلين : ما هذا الذى جئتنا به من هذا القرآن لتسحرنا لطاعتك وتمنعنا عن لذات الدنيا — إلا سحر بين ظاهر تسحر به العقول وتسخر به الضمائر والقلوب .

وبعد أن ذكر مايقوله المنكرون للبعث ذكر مايقوله المنكرون لإندار الرسول صلى الله عليه وسلم إياهم عذاب الدنيا والآخرة بتكذيبهم له فقال :

( ولئن أخرجنا عنهم العذاب إلى أمة معدودة ليقولن مايجبسه ؟ ) أى ولئن أخرجنا

عنهم عذابنا الذي توعدّهم به الرسول صلى الله عليه وسلم إلى حين من الزمن مقدر في علمنا وهو مقتضى سنتنا في خلقنا ، و بيناه في كتابنا بقولنا « لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ » ليقولن استهزاء ، أى شئ يمنع هذا العذاب من الوقوع إن كان حقا .

( ثم توعدّهم بنزوله فقال ألا يوم يأتيهم ليس مصروفا عنهم ) أى ألا إن له يوما يأتيهم فيه حين تنتهى المدة المضروبة دونه ، ويؤمئذ لا يصرفه صارف ، ولا يحبسه حابس .  
( وحق بهم ما كانوا به يستهزئون ) أى وسيحيط بهم يومئذ من كل جانب ما كانوا يستهزئون به من العذاب قبل وقوعه ، فلا هو يصرف عنهم ، ولا ينجون منه .

وَلَئِنْ أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيَكْفُرُ ۖ (٩)  
وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ نِعْمَاءَ بَعْدَ ضُرَاءٍ مَسَّهُ لَيَقُولُنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي ، إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ (١٠) إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ  
وَأَجْرٌ كَبِيرٌ (١١)

### تفسير المفردات

الإِذَاقَةُ هنا : الإِغْطَاءُ القليل ، والنزَعُ : السلب والحرمان ، واليُكْفُورُ : شديد اليأس من عود تلك النعمة ، والكفُورُ : كثير الكفران والجحود لما سلف عليه من النعم ، والنعماء والنعمة والنعمى : الخير والمنفعة ، ويتأبها الضراء والضُر ، وفرح : بطر مغتر بهذه النعمة ، فخور : متعظم على الناس بما أوتى من النعم ، مشغول بذلك عن القيام بشكرها .

### المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه أنه خلق السموات والأرض ليبلى الإنسان أيشكر أم يكفر؟  
نبيّ على ذلك بذكر طبيعة الإنسان في ذلك ، وهى أنه إذا أصابته نعمة ثم نزعته

قَنِطَمِنْ رَوْحِ اللَّهِ وكفر بها، وإذا أذاقه نعمة بعد بؤس بطر ونخر - هكذا شأن الإنسان - إلا من صبر وشكر وعمل صالحا .

## الإيضاح

( ولئن أذقنا الإنسان منا رحمة ثم نزعناها منه إنه ليؤس كفور ) أى ولئن أعطينا الإنسان نوعا من أنواع النعم كرخاء عيش و بسطة رزق وصحة وأمن وولد بارّ ، رحمة سبتدأة منا أذقناه لذاتها فكان شديد الاغترباط بها ، ثم سلبنا ذلك بما يحدث من الأسباب التي قدرها الله في الخليقة كالمرض والموت والعسر ، إنه ليظل في هذه الحال شديد اليأس من الرحمة ، قاطعاً للرجاء من عود تلك النعمة ، كثير الكفران لغيرها من النعم التي لا يزال يتمتع بها فضلا عما سلف منها .  
والخلاصة - إنه يجمع بين اليأس بعودة ما نُزِعَ منه والكفر بما بقي له ، لحرمانه من فضيلتي الصبر والشكر .

( ولئن أذقناه نعماء بعد ضراء مسته ليقولن ذهب السيئات عني إنه لفرح فخور )  
أى ولئن كشفنا عنه الضراء التي أصابته وحل محلها نعماء ، كشفاء من مرض ، وزيادة قوة ، وخروج من عسر إلى يسر ، ونجاة من خوف وذل ، إنه ليقولن : ذهب ما كان يسوءني من المصائب والضراء ولن يعود ، وما هي إلا سحابة صيف قد تقشّعت ، وعلى أن أنساها وأتمتع بتلك اللذات ، وإنه حينئذ لشديد الفرح بما يهبجه البطر بتلك النعمة ، وإنه ليغالى في الفخر والتعالى على الناس والاحتقار لمن دونه فيها .

والخلاصة - أنا إذا منحننا هذا الإنسان اليؤس الكفور نعماء أذقناه لذتها بعد ضراء مسته باقترافه أسبابها لم يقابلها بشكر الله عليها ، بل يبطر ويفخر على الناس ولا يقوم بما يجب عليه من مواساة البائسين الفقراء وعمل الخير لبني الإنسان كفاء ما هو متمتع به من تلك النعم .

ثم استثنى سبحانه من جنس الإنسان فيما ذكر من حاله السالفتين قبل الصابرين الذين يعملون الصالحات فقال :

(إلا الذين صبروا وعملوا الصالحات أولئك لهم مغفرة وأجر كبير) أى إلا الذين صبروا على ما أصابهم من الضراء إيماناً بالله واحتساباً للأجر عنده ، وعملوا الصالحات حينما يكشفها ويبدل النعماء بها ويشكره باستعمالها فيما يرضيه من عمل البر والخير لعباده ، أولئك لهم مغفرةٌ من ربهم تمحو ما علق بأنفسهم من ذنب أو تقصير ، وأجرٌ كبير في الآخرة على ما وفقوا لعمله من بر وخير كثير .

والخلاصة — إن الإنسان وإن كان مؤمناً حق الإيمان لا يسلم من ضيق صدر حين حلول الضراء والمصائب ، وذلك مما ينافى كمال الرضا ، كما لا يسلم حين النعماء من شيء من الزهو والتقصير في الشكر ، فيغفر له كل منهما بصره وشكره وإنابته إلى ربه . وقد جاء بمعنى الآية قوله تعالى : « وَالْعَصْرِ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَبِئْسَ إِلَّا الْذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَّصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَّصَوْا بِالصَّبْرِ » .  
ووصف الأجر بالكبير — لما حواه من نعيم سرمدى وأمن من العذاب ورضا من الله عز وجل ونظر إلى وجهه الكريم «وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ» .

فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ أَنْ يَقُولُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ كِتَابٌ أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ ، إِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ (١٢) أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوْرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرِيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَضَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (١٣) فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ وَأَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ (١٤)

### تفسير المفردات

لعل هنا للاستفهام الإنكارى الذى يفيد النهى ، وضيق الصدر : يراد به الغم والحزن ، والكتنز : ما يدخر من المال فى الأرض ، والوكيل : الرقيب الحفيظ للأمر ،

الموكل بحراستها ، والاستجابة للداعي : إجابته ، والإسلام : الإذعان والخضوع والالتقياد .

### المعنى الجملى

بعد أن ذكر عز اسمه في بدء السورة قولهم في القرآن : إنه سحر مبين ، وأنهم يستغشون ثيابهم كي لا يسمعوه - قفى على ذلك بذكر تكذيبهم للرسول صلى الله عليه وسلم والقرآن وبيان أن همه وحزنه صلى الله عليه وسلم قد بلغ من كلامهم كل مبلغ ، ثم أعقبه بتحديه لهم بالقرآن كي يأتوا بعشر سور مثله ، حتى إذا ما عجزوا علم أنه وحى من عند الله .

روى عن ابن عباس أن الآية نزلت حين قال رؤساء مكة : يا محمد اجعل لنا جبال مكة ذهبا إن كنت رسولا ، وقال آخرون : اثنتا بالملائكة يشهدون بنبوتك فقال لأقدر على ذلك .

### الايضاح

( فلعلك تارك بعض ما يوحى إليك وضائق به صدرك ) أى افتارك أنت أيها الرسول بعض ما يوحى إليك ، مما يشقّ سماعه على المشركين من الأمر بالتوحيد والنهى عن الشرك والإنذار والوعيد لهم ، والنهى على معبوداتهم وتسفيه أحلامهم ، وضائق به صدرك أن تبليغهم إياه كما أنزل .

ذاك أنهم كانوا يتهاونون به ، فيضيق صدره أن يلتقى إليهم ملا يقبلون وما يضحكون منه ، فاستحته سبحانه على أداء الرسالة وعدم الببالاة باستهزائهم ، وطرح مقالاتهم الساخرة وراءه ظهريا .

وخلاصة ذلك - تحمل أخف الضررين وهو تحمل سفاهتهم ، على ترك بعض الوحي والوقوع فى الخيانة فيه .

( أن يقولوا لولا أنزل عليه كنز أو جاء معه ملك ) أى كراهة أن يقولوا : هلا أعطاه ربه كنزا من عنده يغنيه ويمتازه عن غيره ، أو جاء معه ملك يؤيده فى دعوته كما حكى الله عنهم فى سورة الفرقان « وَقَالُوا مَا هَذَا الرَّسُولِ يَا كُلُّ الطَّعَامِ وَيَمْسِي فِي الْأَسْوَاقِ لَوْلَا أَنْزَلَ إِلَيْنَا مَلَكٌ فَيَكُونُ مَعَهُ نَذِيرًا . أَوْ يُنْفِثَ إِلَيْنَا كَنْزًا أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا » .

وجملة المعنى — إن عنادهم وجحودهم وإعراضهم عن الإيمان وشدة اهتمامك بأمرهم مما من شأنه أن يقتضى ضيق الصدر بحسب الطباع البشرية أو أن يخطر على البال ترك بعض الوحي ، ولولا عصمتنا إياك وتثبيتنا لك لاجترحت ذلك واستسلمت لماثلته جرت العادة ، ولكن الله حفظك حتى تؤدى رسالته وترحم العالمين بنور نبوتك كما قال : « وَلَوْلَا أَنْ تَبْتِنَاكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا » .

وقد جاء بمعنى الآية قوله تعالى : « فَلَمَّا كَبَبَ بِرَأْسِهِ فَعَالَآءُ بِمَا كَفَرُوا مِنْهُ لَعْنَةُ اللَّهِ الْفَاعِلِينَ » وقوله : « وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ » وقوله : « الْمَص . كِتَابٌ أَنْزَلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِنْهُ لِتُنذِرَ بِهِ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ » .

( إنما أنت نذير والله على كل شيء وكيل ) أى ليس عليك إلا إنذارهم بما أوحى إليك غير مبال بما يصدر منهم ويطلق ألسنتهم ، والله هو الرقيب على عباده وليس عليك من أعمالهم شيء .

وقد جاء بمعنى الآية قوله : « لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ » وقوله « فَذَكَرْهُمْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ . لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيِّرٍ » وقوله : « نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ فَذَكَرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدِ » .

وبعد أن ذكر ضيق صدره لتكذيب المشركين له ، قفى على ذلك بذكر ما قالوه في القرآن فقال :

( أم يقولون افتراه قل فأتوا بعشر سور مثله مفتريات وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين ) أى بل أقول هؤلاء المشركون من أهل مكة إن محمدا قد افتري هذا القرآن ؟ فقل لهم إن كان الأمر كما تزعمون فأتوا بعشر سور مثله مفتريات من عند أنفسكم لاندعون أنها من عند الله ، فإنكم أهل اللسن والبيان والمران على المفاخرة بالفصاحة والبلاغة وفنون الشعر والخطابة ، ولم يسبق لى مع العمر الطويل الذى عشته بينكم أن أزاول شيئا من ذلك ، فإن كان من كلام البشر فأتتم على مثله أقدر ، وإنكم لتعلمون أى لم أ كذب على بشر قط ، فكيف أفترى على الله ، وإن زعمتم أن لى من يعيننى على تأليفه ووصفه ، فادعوا من استطعتم ممن تعبدون غير الله ، ومن جميع خلقه ليساعدوكم على الإتيان بهذه السور العشر ، ولتكن مثله مفتريات تشتمل على مثل ما فيه من تشريع دينى ومدنى وحكم ومواعظ ، وآداب وأبناء غيبية إخبارا عن ماض ، وأبناء غيبية إخبارا عن مستقبل ، يمثل هذا النظام البديع والأسلوب البالغ حد الإعجاز ، والبلاغة الساحرة للألئاب ، والسلطان الحاكم على الأنفس والأرواح - إن كنتم صادقين فى دعواكم .

والخلاصة - إن مشركى مكة المعاندين لم يجدوا شبهة فى القرآن بعد شبهة السحر التى لم نجد آذانا صاغية عند العرب ، لأنهم أرباب الفصاحة واللسن فعرفوا فضله على سائر الكلام - إلا زعمهم أن محمدا قد افتراه جملة وليس بوحي من عند الله ، فتحداهم بالإتيان بعشر سور مثله فى النظم والأسلوب ، محتوية على التشريع القيم من دينى ومدنى وسياسى ، وحكم ومواعظ وآداب ، وكلفهم دعوة من استطاعوا من دون الله ليظاهروهم ويعاونوهم على ذلك ، فعجزوا ولم يجدوا من فصحاءهم من يستجيب لهم ، فقامت الحجة عليهم وعلى غيرهم إلى يوم الدين ، وهذا معنى قوله :

( فإن لم يستجيبوا لكم فاعلموا أنما أنزل بعلم الله ) أى فإن لم يستجيب لكم من

تدعونهم من دون الله ليعاونوكم على الإتيان بالعشر السور الماثلة للقرآن من فحول الكتاب ومصاقع الخطباء وعلماء أهل الكتاب العارفين أخبار الأنبياء ، فاعلموا أنما أنزل على محمد صلى الله عليه وسلم بمقتضى علم الله وإرادته أن يبلغه لعباده على لسان رسوله ولا يقدر عليه محمد ولا غيره ممن تدعون زورا أنهم أعانوه ، لأنه من علم الغيب الذى لا يعلمه إلا من أعلمه الله به .

(وأن لا إله إلا هو) أى واعلموا أنه لا إله يعبد بحق إلا هو ، إذ من خصائص الإله أن يعلم ما لا يعلمه غيره ، وأن يعجز من عداه عن مثل ما يقدر عليه .

(فهل أنتم مسلمون) أى فهل أنتم بعد أن قامت عليكم الحجة داخلون فى الإسلام الذى أدعوكم إليه بهذا القرآن ، مؤمنون بما فيه من عقائد ووعود ووعيد وأحكام وحكم وآداب .

والخلاصة - إنه لم يبق لكم بعد أن دحضت شبهتكم وانقطعت معاذيركم إلا وجود العناد وإعراض الاستكبار ، والعاقل المنصف لا يرضى لنفسه بمثل هذا دعاء المشركين .

### افتراء النبي صلى الله عليه وسلم للقرآن

افتراء القرآن يشمل ناحيتين :

- (١) افتراء فى جملته بإسناده إلى الله ادعاء أنه من كلامه أو حاه إليه .
- (٢) افتراء أخبار الغيب التى يدعى أنها من عند الله ولا يعلمها إلا هو وبها استدلل على نبوته ، وقد حكى الله عنهم ادعاء الأمرين فى سورة الفرقان بقوله : « وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا : إِنَّ هَذَا إِلَّا إِفْكٌ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ فَقَدْ جَاءُوا ظُلْمًا وَزُورًا . وَقَالُوا أُسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْنَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا » .

وأساطير الأولين : هى قصصهم وأكاذيبهم التى سطرها ، وكانت العرب تسلى نفسها عن جهلها بالآديان والتواريخ بزعمهم أنها أساطير الأولين .

وأنباء الغيب ضربان :

- ( ١ ) أنباء الغيب الماضية ، وتشمل قصص الرسل مع أقوامهم ، وأخبار التكوين كخلق السموات والأرض وما بينهما كخلق الإنسان والجان .
- ( ب ) أنباء الغيب الآتية ، وتشمل وعد الله بنصره لرسوله والمؤمنين وجعل العقاب لهم واستخلافهم في الأرض وخذلان أعدائهم الكافرين ، والقيامة والبعث والحساب والجزاء على العقائد والأعمال ، وقد كانوا ينكرون ذلك ويستبعدونه .

### ما حوته قصص القرآن

- إن في قصص القرآن لأشعةً من ضياء العلم والهدى جاءت على لسان كهل أمي لم يكن منشئا ولا راوية ولا حافظا ، ويمكن أن نجمل أغراضها فيما يلي :
- ( ١ ) بيان أصول الدين المشتركة بين جميع الأنبياء من الإيمان بالله وتوحيده وعلمه وحكمته وعدله ورحمته والإيمان بالبعث والجزاء .
- ( ٢ ) بيان أن وظيفة الرسل تبليغ وحى الله لعباده فحسب ، ولا يملكون وراء ذلك نفعا ولا ضرا :
- ( ٣ ) بيان سنن الله في استعداد الإنسان النفسى والعقلى لكل من الإيمان والكفر والخير والشر .

- ( ٤ ) بيان سنن الله في الاجتماع وطباع البشر وما في خلقه للعالم من الحكمة .
- ( ٥ ) آيات الله وحججه على خلقه في تأييد رسوله .
- ( ٦ ) نصائح الأنبياء ومواعظهم الخاصة بكل قوم بحسب حالهم كقوم نوح في غوايتهم وغرورهم ، وقوم فرعون وملئه في ثروتهم وعتومهم ، وقوم عاد في قوتهم وبطشهم ، وقوم لوط في فحشهم .

فإن أمكن أن يكون كل هذا حديثا مفترى ، فإن مفتريه يكون أكمل منهم جميعا علما وعملا وهداية وإصلاحا ، فما أجدرهم أن يتبعوه ، وما أحقهم أن يهتدوا بهديه ،

ولن يكشف حقيقة أمره إلا من يستطيع أن يأتي بحديث مثله ولو مفترى في صورته وموضوعه ، فليأتوا بحديث مثله إن كانوا صادقين .

ومن المعلوم أن الاحتذاء والاتباع ، أهون من الابتداء والابتداع .  
ولكن افتراء الأُمى لهذه العلوم الإلهية والنفسية والتشريعة محال ، فقد عجز عن مثلها حكما العلماء - أفهكذا يكون الافتراء ، والحديث المفترى الذي يُنهي عنه العقلاء وفي التحدى بهذه السور العشر توسيع على المنكرين إن حدثتهم أنفسهم أن يتصدوا لمعارضته ، لكنهم لم يستطيعوا فقامت عليهم وعلى غيرهم الحجة إلى يوم القيامة .

مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوفٍ إِلَيْهِمْ أَعْمَالُهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ (١٥) أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَاطِلٌ مِمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٦)

### تفسير المفردات

نوف إليهم : أى نوصل إليهم ، ولا يبخسون : لا ينقصون ، وحبط : أى فسد وبطل ولم ينتفعوا به .

### المعنى الجملى

بعد أن أقام الحجة على حقيقة دعوة الإسلام ، وعلى أن القرآن من عند الله وليس بالمفترى من عند محمد صلى الله عليه وسلم كما يدعيه المشركون - قفى على ذلك ببيان أن الباعث لهم على المعارضة والتكذيب ليس إلا شهواتهم وحظوظهم الدنيوية والإسلام يدعو إلى إيثار الآخرة على الأولى .

## الايضاح

( من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها نوّف إليهم أعمالهم فيها وهم فيها لا يبخسون )  
 أي من كان حظهم من الدنيا التمتع بلذاتها من طعام وشراب ، وزينتها من اللباس  
 والأثاث والرياش والأموال والأولاد دون استعداد للحياة الآخرة بعمل البر والإحسان  
 وتزكية النفس بعمل الطاعات بباعث الإيمان - نوّد إليهم ثمرات أعمالهم وافية تامة  
 بحسب سنتنا في الأسباب ولا يُنقصون شيئاً من نتاج كسبهم لأجل كفرهم ، إذ مدار  
 الأرزاق فيها على الأعمال لاعلى النيات والمقاصد ، وإن كان لهداية الدن أثر في ذلك  
 كالاستقامة والصدق ، واجتناب الخيانة والزور والغش ونحو ذلك .

والخلاصة - إن جزاء الأعمال في الدنيا منوط بأمرين : كسب الإنسان ،  
 وقضاء الله وقدره به ، وأما جزاء الآخرة فهو بفعل الله تعالى بلا وساطة أحد .  
 « وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا » .

( أولئك الذين ليس لهم في الآخرة إلا النار وحبط ما صنعوا فيها وباطل ما كانوا  
 يعملون ) أي هؤلاء الذين لا همّ لهم إلا الدنيا وزينتها ، ليس لهم في الآخرة إلا النار ،  
 لأن الجزاء فيها على الأعمال كالجزاء في الدنيا ، وهم لم يعملوا للآخرة شيئاً ، فإن العمل  
 لها يكون بتزكية النفس بالإيمان وعمل الفضائل - وبالتقوى باجتنب المعاصي والردائل ،  
 وما صنعوه فيها مما ظاهره البر والإحسان كالصدقة وصلة الرحم ونحو ذلك لم يكن تزكية  
 لأنفسهم تقرّبهم إلى ربهم ، بل كان لأغراض نفسية من شهواتها كالرياء والسمة  
 والاعتزاز بذوى القرابة على الأعداء ولو بالباطل ، فلا أجر له فيها وقد انقطع  
 أثره الدنيوي .

وقد جاء في معنى الآية قوله تعالى : « مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَلْنَا لَهُ فِيهَا  
 مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا مَذْمُومًا مَدْحُورًا . وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ

وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا . كَلَّا مُّمَدُّ هَوَاهُ  
 وَهُوَ لَاءٍ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا . انظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ  
 عَلَى بَعْضٍ ، وَالْآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا » وقوله صلى الله عليه وسلم  
 « إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى ، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله  
 فهجرته إلى الله ورسوله ، ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو امرأة يتزوجها فهجرته  
 إلى ما هاجر إليه » .

والخلاصة — أن الدين يبيح التمتع بالطيبات من الماء والشارب ، ويبيح  
 الزينة في غير سرف ولا خيلاء ، على شريطة ألا يجعلها المرء كل همه في الحياة ،  
 فيحقر المواهب الإنسانية من عقلية وروحية وهي التي سماها الإنسان على غيره من  
 المخلوقات ، ألا ترى أن الثور يفضل في كثرة الأكل ، والبعير في كثرة الشرب ،  
 والعصفور في كثرة السِّفاد ، والطاوس في الزينة ولمعان اللباس .

أَفَمَنْ كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِنْهُ وَمِنْ قَبْلِهِ كِتَابُ  
 مُوسَىٰ إِمَامًا وَرَحْمَةً أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزَابِ  
 فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِنْهُ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ  
 النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ (١٧) .

### تفسير المفردات

البينة : ما يتبين به الحق كالبرهان في الأمور العقلية ، والنصوص في الأمور النقلية ،  
 والتجارب في الأمور الحسية ، والشهادة في القضاء ، ويتلوه : يتبعه ، والشاهد :  
 هو القرآن ، والموعد : مكان الوعد وهي النار يردّها كما قال : « لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ  
 إِلَّا النَّارُ » والمرية : الشك .

## المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه مآل من كان يريد الدنيا وزينتها ولا يهتم بالآخرة وأعمالها -  
 قفى على ذلك بذكر من كان يريد الآخرة ويعمل لها ، وكان على بينة من ربه فى كل  
 ما يعمل ومعه شاهد يدل على صدقه ، وهو القرآن ، ومآل من أنكر صحته وكفر به .

## الإيضاح

( أفمن كان على بينة من ربه ويتلوه شاهد منه ومن قبله كتاب موسى إماماً  
 ورحمة ) أى أفمن كان على نور وبصيرة فى دينه ويؤيده نور غيبى يشهد بصحته وهو  
 القرآن المشرق النور والهدى ، ويؤيده شاهد آخر جاء من قبله . وهو الكتاب الذى  
 أنزل على موسى عليه السلام حال كونه إماماً متبّعاً فى الهدى والتشريع ، ورحمة لمن  
 آمن وعمل به من بنى إسرائيل ( وشهادة موسى لهذا النبى الكريم شهادة مقال  
 بالبشارة بنبوته ، وشهادة حال وهى التشابه بين رسالتهما ) - أى أفمن كان على هذه  
 الأوصاف كمن يريد الحياة الدنيا الفانية وزينتها الموقوتة ، ويظل محروماً من الحياة  
 العقلية والروحية التى توصل إلى سعادة الآخرة الباقية .

ونحو الآية قوله : « أفمن شَرَحَ اللهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِنْ رَبِّهِ »  
 وإجمال المعنى - أفمن كان كامل الفطرة والعقل ، وعرف حقيقة الوحي وهو  
 القرآن وما فيه من نور وهداية ، وعرف تأييده بالوحي السابق الذى اهتدى به  
 بنو إسرائيل ، فتظاهرت لديه الحجج الثلاث فى الهداية ( كمال الفطرة ، ونور القرآن  
 والوحي الذى أنزل على موسى ) كمن حرم من ذلك وكان همه مقصوراً على الحياة  
 الفانية ولذاتها .

( أولئك يؤمنون به ) أى أولئك الذين جمعوا بين البينة الوهية ، والبينة الكسبية  
 العقلية ، يؤمنون بهذا القرآن إيمان يقين وإذعان ، على علم بما فيه من الهدى والفرقان ،  
 فيجزمون بأنه ليس بالمتفترى من دون الله ولم يكن من شأنه أن يكون كذلك .

(ومن يكفر به من الأحزاب فالنار موعده) أى ومن يكفر بهذا القرآن فيجحد أنه من عند الله ممن تحزبوا من أهل مكة وزعماء قريش للصدّ عنه . قال مقاتل هم بنو أمية وبنو المغيرة بن عبد الله الحزومي وآل طلحة بن عبيد الله ، والذين سيتحزبون لمثل ذلك من أهل الكتاب - فإنه يصير إلى جهنم من جزاء تكذيبه لوعيده الذى جاء فى نحو قوله « أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ » .

(فلاتك فى مرية منه إنه الحق من ربك) أى فلا تكن أيها المكلف فى شك من أمر هذا القرآن إنه الحق الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه آتيا من ربك وخالقك الذى يربيك بما تكلم به فطرتك ، ويوصلك إلى سعادتك فى دنياك وآخرتك .

(ولكن أكثر الناس لا يؤمنون) أى ولكن أكثر الناس لا يؤمنون هذا الايمان الكامل ، أما المشركون منهم فلاستكبار زعمائهم ورؤسائهم ، وتقليد مرءوسيههم وعامتهم لهم ، وأما أهل الكتاب فلتحريفهم دين أنبيائهم وابتداعهم فيه .

وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أُولَئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَى رَبِّهِمْ  
وَيَقُولُ الشَّاهِدُ هُوَ لَأَنَّ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى رَبِّهِمْ أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ (١٨)  
الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُمْ بِالآخِرَةِ هُمْ  
كَافِرُونَ (١٩) أُولَئِكَ لَمْ يَكُونُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانَ لَهُمْ  
مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءٍ يُضَاعَفُ لَهُمُ الْعَذَابُ مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ  
السَّمْعَ وَمَا كَانُوا يُبْصِرُونَ (٢٠) أُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ  
عَنَّهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ (٢١) لَاجِرَمَ أَنَّهُمْ فِي الآخِرَةِ هُمْ الْأَخْسَرُونَ  
(٢٢) إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَخْبَتُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ أُولَئِكَ أَصْحَابُ

الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٢٣) مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَعْمَى وَالْأَصْمَى وَالْبَصِيرِ  
وَالسَّمِيعِ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا أَفَلَا تَذَكَّرُونَ؟ (٢٤).

### تفسير المفردات

الأشهاد : واحدهم شاهد ، واللعنة : الطرد من الرحمة ، والصدّ عن سبيل الله :  
الصرف عنه ، والعوج : الالتواء ، ومعجزين في الأرض ، أى لا يمكنهم أن يهربوا من  
عذابه ، وضل : أى غاب ، ولا جرم : أى حقا ، وأخبتوا : أى خشعوا وخضعوا  
وأصله من الخبت ، وهو الأرض المطمئنة .

### المعنى الجملى

بعد أن بين سبحانه فيما سبق أن الناس فريقان : فريق يريد الدنيا وزينتها  
وفريق على بينة من ربه ، قفّى على ذلك بيان حال كل من الفريقين في الدنيا وما يكون  
عليه في الآخرة .

### الإيضاح

(ومن أظلم ممن افترى على الله كذبا) أى لا أحد أظلم لنفسه ولغيره ممن افترى  
على الله كذبا في أقواله أو أفعاله ، أو أحكامه أو صفاته ، أو في اتخاذ الشفعاء والأولياء له  
بدون إذنه أو فى زعم أنه اتخذ له ولدا من الملائكة كالعرب الذين قالوا للملائكة  
بنات الله ، والنصارى الذين قالوا المسيح ابن الله ، أو فى تكذيب ما جاء به رسله من  
دينه لصدّ الناس عن سلوك سبيله .

( أولئك يعرضون على ربهم ويقول الأشهاد هؤلاء الذين كذبوا على ربهم ،  
 ألا لعنة الله على الظالمين ) أى ويوم القيامة تعرض أعمال هؤلاء وأقوالهم على ربهم  
 لحسابتهم ، ويقول الذين يقومون للشهادة عليهم من الملائكة والأنبياء وصالحى  
 المؤمنين : هؤلاء الذين كذبوا على ربهم بالافتراء عليه ، ويفضحونهم بهذه الشهادة  
 المقرونة باللعة الدالة على خروجهم من محيط الرحمة .

وقد جاء فى معنى الآية قوله تعالى : « إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ  
 الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ . يَوْمَ لَا يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ مَعَذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ  
 الدَّارِ » وفى حديث ابن عمر فى الصحيحين وغيرهما : سمعت رسول الله صلى الله  
 عليه وسلم يقول : « إن الله يبنى المؤمن حتى يضع كنفه عليه ويستره من الناس  
 ويقرره بذنوبه ويقول له : أتعرف ذنب كذا ؟ أتعرف ذنب كذا ؟ فيقول : رب  
 أعرف ، حتى إذا قرره بذنوبه ورأى فى نفسه أنه قد هلك قال فإنى سترتها عليك  
 فى الدنيا وأنا أغفرها لك اليوم ، ثم يُعطى كتاب حسناته . وأما الكافر والمنافق فيقول :  
 الأشهاد ( هؤلاء الذين كذبوا على ربهم ، ألا لعنة الله على الظالمين ) . »

( الذين يصدون عن سبيل الله ويبغونها عوجا وهم بالآخرة هم كافرون ) أى إن  
 الظالمين هم الذين يمنعون الناس ويصرفونهم عن سبيل الله ( وهى دينه القيم وصراطه  
 المستقيم ) ويصفونها بالعوج والالتواء لينفروا الناس منها ، والحال أنهم كافرون بالآخرة  
 لا يؤمنون ببعث ولا جزاء .

( أولئك لم يكونوا معجزين فى الأرض وما كان لهم من دون الله من أولياء  
 يضاعف لهم العذاب ) أى إن هؤلاء الذين يصدون عن سبيل الله لم يكونوا بالذين  
 يُعجزون ربهم بهربهم منه فى الأرض إذا أراد عقابهم ، بل هم فى قبضته وملاصكه ،  
 لا يمتنعون منه إذا أرادهم ولا يفوتونه هر با إذا طلبهم ، ولم يكن لهم أنصار ينصرونهم  
 من دونه ويحولون بينهم وبينه إذا هو عدبهم ، ويضاعف لهم العذاب من أجل  
 ضلالهم وإضلالهم .

ثم بين علة هذه المضاعفة بقوله :

( ما كانوا يستطيعون السمع وما كانوا يبصرون ) أى ما كانوا يستطيعون إلقاء أسماعهم إلى القرآن إصغاء لدعوة الحق ، لاستحواذ الباطل على أنفسهم ورين الكفر والظلم على قلوبهم ، كما حكي الله عنهم بقوله : « وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَعْلَمُونَ » وما كانوا يبصرون ما يدل على صدقه فى الأنفـس وفى الآفاق .

وإجمال المعنى — إنهم لشدة انهماكهم فى الكفر واتباع الهوى والشهوات صاروا يكرهون الحق والهدى ، فيثقل عليهم سماع ما يبينه من الآيات السمعية وما يثبتـه من الآيات البصرية ، فهم قد ختم الله على سمعهم وعلى أبصارهم فلا يسمعون الحق سماع منتفع ولا يبصرون حجج الله إبصار مهتدٍ .

( أولئك الذين خسروا أنفسهم وضل عنهم ما كانوا يفترون ) أى أولئك الذين هذه صفتهم هم الذين غبنوا أنفسهم حظوظها من رحمة الله ، بافترائهم عليه واشتراء الضلالة بالهدى ، وبطل كذبهم بادعاء أن له شركاء وشفعاء يقر بونهم إليه زلفى ، ثم سلك بما كانوا يدعونه من دون الله غير مسلكهم ؛ إذ سلك بهم إلى جهنم وصارت آلتهم عدما ؛ لأنها كانت فى الدنيا أحجارا أو خشبا أو نحاسا ، وذلك هو ضلالهم وبعدهم عنهم .

( لاجرم أنهم فى الآخرة هم الآخسرون ) أى حقا إنهم فى الآخرة أشد الناس خسرا ، إذ هم قد اعتاضوا عن نعم الجنان ، بحميم آنٍ ، وعن شرب الرحيق المختوم ، بسموم وحميم ، وظلّ من يحموم ، وعن الحور العين ، بطعام من غسلين ، وعن قرب الرحمن ، بمقوبة الملك الديان .

وبعد أن بين حال الكافرين وأعمالهم ومآلهم ، بين حال المؤمنين وعاقبة أمرهم فقال :

( إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات وأخبتوا إلى ربهم أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون ) أى إن الذين صدقوا الله ورسوله وعملوا فى الدنيا الأعمال الصالحة ، فأتوا

بالطاعات وتركوا المنكرات ، وخشعت نفوسهم واطمأننت إلى ربهم - وأنتك هم قُطَّان الجنة الذين لا يخرجون منها ولا يموتون ، بل هم ما كثون فيها أبدا .

( مثل القريفين كالأعمى والأصم والبصير والسميع ) أى مثل فريقى الكافرين والمؤمنين وصفتهما الحسية التى تطابق حالهما كمثل الأعمى الفاقدا لحاسة البصر فى خلقته ، والأصم الفاقدا لحاسة السمع الذى حرِّم وسائل العلم والمعرفة الإنسانية والحيوانية ، ومن هو كامل حاستى السمع والبصر ، فهو يستمد العلم من آيات الله فى خلقه بما يسمع من القرآن وبما يرى فى الأكوان ، وهما وسيلتا العلم والهدى لعقل الإنسان .

( هل يستويان مثلا أفلا تذكرون ؟ ) أى هل يستوى الفريقان صفة وحالا ومآلا ؟ كلا ، إنهما لا يستويان ، أتغفلون عن ذلك المثل الجلى الواضح أفلا تتذكرون ما بينهما من التباين والاختلاف فتعتبروا به ؟ .

وإجمال المعنى - إنه شبه الكافرين بالعمى الذين لا يستعملون أبصارهم فيما يفضلون به الحيوان العُجم من فهم آيات الله التى تزيدهم علما وهدى ، وبالصم الذين لا يسمعون داعى الله إلى الرشاد والهدى فيجيبونه ويهتدون به ، وشبه المؤمنين الذين انتفعوا بأسماعهم وأبصارهم واهتدوا إلى الجنة وتركوا ما كانوا خابطين فيه من كفر وضلال ، بحال من هو سميع بصير فيهدى بسمعه إلى ما يبعدة من مواضع الهلاك ، ويهدى ببصره بواسطة النور حين السير فى الظلام .

### قصة نوح عليه السلام

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ (٢٥) أَلَّا تَعْبُدُونَ  
إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمِ الْيَوْمِ (٢٦) فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ  
كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ

هُمْ أَرَادِلْنَا بِأَدَى الرَّأْيِ وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ  
كَاذِبِينَ (٢٧).

## تفسير المفردات

الملا: الأشراف والزعماء وأراذل: واحدهم أراذل، وهو الخسيس الدنيء، وبأدى  
الرأى: أى ظاهره قبل التأمل فى باطنه، وفضل: أى زيادة.

## المعنى الجملى

بعد أن ذكر بعثة النبى الكريم، وأثبت بالبرهان أنه رسول من رب العالمين،  
وأن القرآن وحى من الرحمن الرحيم، قفى على ذلك بقصص الأنبياء قبله ليبين لقومه أن  
محمدًا صلى الله عليه وسلم ليس بدعا من الرسل وأنه إنما بعث بمثل ما بعث به من قبله  
من الدعوة إلى عبادة الله وحده والإيمان بالبعث والجزاء، فخاله معهم كحال من قبله  
من الرسل عليهم السلام مع أقوامهم جملة وتفصيلا كما قال: « سُنَّةَ مَنْ قَدْ أَرْسَلْنَا  
قَبْلَكَ مِنْ رُسُلِنَا وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا » .

## الإيضاح

( ولقد أرسلنا نوحا إلى قومه إني لكم نذير مبين ) أى ولقد أرسلنا نوحا إلى  
قومه قائلا لهم إني لكم نذير من الله أنذركم بأسه على كفركم به ، فأمنوا به  
وأطيعوا أمره .

ثم فسر هذا الإنذار بقوله :

( ألا تعبدوا إلا الله إني أخاف عليكم عذاب يوم أليم ) أى ألا تعبدوا إلا الله  
ولا تشركوا به شيئا، وكانوا أول من أشرك بالله واتخذوا الأنداد، وكان هو أول رسول  
أرسله الله إلى أهل الأرض .

ثم علل هذا بقوله :

إني أخاف عليكم الخ ، أى إن لم تخصوه بالعبادة وتفردوه بالتوحيد وتخلعوا مادونه من الأنداد والأوثان - أخف عليكم من الله عذاب يوم مؤلم عقابه وعذابه ، لمن عُدَّ فيه .

وقد أجابوه عن مقالته بأربع حجج داحضة ظنا منهم أنها تكفى فى رد دعوته .

(١) ( فقال الملائ الذين كفروا من قومه ما نراك إلا بشرا مثلنا ) أى إن الأشراف والزعماء بادروا إلى الجواب بقولهم : ما أنت إلا بشر مثلنا فى الجنس لامزية لك علينا تجعلنا نطيعك ونذعن لنبوتك .

(٢) ( وما نراك اتبعك إلا الذين هم أراذلنا بادي الرأي ) أى وإنا لم نر متبعيك إلا الأخساء كالزراع والصناع ومن فى حكمهم فى المسكنة الاجتماعية ، بادي الرأي قبل التأمل فى عواقبه ، والنظر فى مستنده ، وترجيح العقل له ، وهذا مما يرجح رد الدعوة والتولى عنها .

(٣) ( وما نرى لكم علينا من فضل ) أى وما نرى لك ولئن اتبعك أدنى امتياز عنا من قوة أو كثرة أو علم أو أصالة رأى يحملنا على اتباعكم ويجعلنا ننزل عن جاهنا ومالنا ونكون نحن وأتم سواء .

(٤) ( بل نظنكم كاذبين ) أى بل إنا نرجح الحكم عليك وعليهم بالكذب ، فانت كاذب فى دعوى النبوة ، وهم كاذبون فى تصديقك ، وهذه الشبهة الأخيرة طعن على نوح عليه السلام أشركوا فيها أتباعه ولم يجابوه بها وحده ؛ كما أنهم جعلوها ظنا ولم يجزموا بها ، لأن ذلك كاف فى رد دعوته ، وعدم الدخول فى دينه .

قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُمْ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَآتَانِي رَحْمَةً مِّنْ عِنْدِهِ فَعَمَّمْتَ عَلَيْهِمْ أَنْ لَزِمْتُمْوهَا وَأَنْتُمْ لَهَا كَارِهُونَ (٢٨)  
وَيَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ ، وَمَا أَنَا بِطَارِدٍ

الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّهُمْ مُلَاقُوا رَبِّهِمْ ، وَلَسْتُ أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ (٢٩)  
 وَيَأْقَوْمٍ مَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ طَرَدْتُهُمْ ، أَفَلَا تَذَكَّرُونَ (٣٠)  
 وَلَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ ،  
 وَلَا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ لَنْ يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْرًا ، اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا  
 فِي أَنْفُسِهِمْ إِنِّي إِذَا لَمِنَ الظَّالِمِينَ (٣١) .

### تفسير المفردات

أرأيتم : أى أخبروني ، والبينة . ما يتبين به الحق ، وعميت : أخفيت ، وطرده :  
 أبعد ونحاه ، وتجهلون : أى تسفهون عليهم ، وهو من الجهالة التى تضادّ العقل والحلم ،  
 وتذكرون أصله تذكرون ، وزرى على فلان زراية : عابه واستهزأ به .

### المعنى الجملى

بعد أن ذكر مقاتلهم وطعنهم فى نوح عليه السلام بتلك الشبه السالفة ، قفى على  
 ذلك بدحض نوح لها ، ورد شبهات أخرى قد تكون صدرت منهم ولم يحكمها ، لعلمها  
 من الرد عليها ، وربما لم يقولوها وإن كان كلامهم يستلزمها ، وهذا من خواص أسلوب  
 الكتاب الكريم ، وسر من أسرار بلاغته .

### الإيضاح

( قال يا قوم أرأيتم إن كنت على بينة من ربى وآتانى رحمة من عنده فعميت  
 عليكم ) أى قال يا قومى : أخبرونى ماذا ترون وماذا تقولون ، إن كنت على حجة فيما  
 جئتكم به من ربى يتبين لى بها أنه الحق من عنده ، لامن عندى ومن كسبى البشرى الذى  
 تشاركونى فيه ، وآتانى رحمة من عنده وهى النبوة وتعاليم الوحي التى هى سبب رحمة .

خاصة لمن يهتدى بها ، فحججها عنكم جهلكم وغروركم بالمال والجاه فلم تتبينوا منها ما تدل عليه من التفرقة بيني وبينكم ، فننعمت فضل الله عنى بحرمانى من النبوة .  
 ( أنلزمكموها وأنتم لها كارهون ) أى أنكرهكم على قبولها وأنتم معرضون عنها غير متدبرين لها ، كلا ، إنا لا نفعل ذلك ، بل نكل أمركم إلى الله حتى يقضى فى أمركم ما يرى ويشاء ، وما علىّ إلا البلاغ .

وهذا أول نصّ فى دين الله على أنه لا ينبغى أن يكون الإيمان بالإكراه .  
 وفى هذه الآية إثبات لنبوته عليه السلام ، وردّ لإنكارهم لها وتكذيبه ومن معه فيها ، وإبطال لشبهتهم فى أنه بشر مثلهم ، وقد فاتهم أن المساواة فى البشرية لا تقتضى استواء أفراد الجنس فى السمكالات والفضائل ؟ فالمشاهدة والتجارب تدل على التفاوت العظيم بين أفراد البشر فى العقل والفكر والرأى والأخلاق والأعمال ، حتى إن الواحد منهم ليأتى بضروب من الإصلاح لقومه بالعلم والعمل يعجز عن مثلها الألوف من الناس فى أجيال كثيرة .

والناس ألف منهم كواحد وواحد كالألف إن أمرعرا  
 فما بالك بمن يختصمهم الله من عباده بما شاء مما لا كسب لهم فيه كالأنبياء  
 والرسل الكرام .

( وياقوم لأأسألكم عليه مالا إن أجرى إلا على الله ) أى لأأسألكم على نصيحتى لكم ودعوتكم إلى توحيد الله وإخلاص العبادة له إلا خيركم ومصلحتكم ولا أريد بذلك مالا فأكون متهما فيه عندكم لمسكانة حبّ المال من أنفسكم واعتزازكم به علىّ وعلى الفقراء من أتباعى ، فما أجرى على ذلك إلا على الله الذى أرسلنى ، فهو الذى يجازينى ويثيبنى عليه .

ومثل هذه المقالة قد صدرت من جميع الأنبياء بعده ، فجاءت على لسان هود وصالح وشعيب ومحمد ، صلوات الله عليهم أجمعين كما ترى ذلك فى سورة الشعراء محكيا عنهم .

(وما أنا بطارد الذين آمنوا) أى ليس من شأنى ولا بالذى يكون منى أن أبعده من يؤمن بى ، وأنحى عني احتقار له على أى حال كانت صفته .

وفى هذا إيماء إلى الجواب عن قولهم (وما تراك اتبعك إلا الذين هم أراذلنا) وقد روى أنهم قالوا له يانوح إن أحببت أن نتبعك فاطرد هؤلاء ، فإننا لن نرضى أن نكون نحن وهم فى الأمر سواء .

نم علل الامتناع من طردهم بقوله :

(إيهم ملاقور بهم) أى إن هؤلاء الذين تسألوننى طردهم - صائرون إلى ربهم وهو سائلهم عما كانوا يعملون فى الدنيا ، ولا يسألهم عن حسابهم وشرفهم .

(ولكنى أراكم قوما تجهلون) أى تجهلون ما يمتاز به البشر بعضهم عن بعض من اتباع الحق والتعلمى بالفضائل وعمل البر والخير ، وتظنون أن الميزة إنما تكون بالمال والجاه .

وقد جاء هذا المعنى فى قصته من سورة الشعراء: «قالوا أنؤمن لك واتبعك الأزدلون . قال وما عابى بما كانوا يعملون . إن حسابهم إلا على ربي لو تشعرون . وما أنا بطارد المؤمنين . إن أنا إلا نذير مبين» .

(ويا قوم من ينصرنى من الله إن طردتهم) أى ويا قوم لا أجد أحدا يمنع عني ما أستحقه من عقاب الله إن طردتهم بعد إيمانهم واتباعهم إياى فيما بلغتهم - فإن ذلك ظلم عظيم يستحق شديد العقاب مهما تكن صفة من اجترحه كما قال فى سورة الأنعام : «فتطردهم فتكون من الظالمين» .

(أفلا تذكرون) أى أفلا تتفكرون فيما تقولون ، وهو ظاهر الخطأ لأنه فتنهوا عنه؟ ، فإن لهم رباً ينصرهم وينتقم لهم .

(ولا أقول لكم عندى خزائن الله) أى ولا أقول لكم بادعئى للنبوة والرسالة إن عندى خزائن رزق الله : (أنواع رزقه التى يحتاج إليها عباده للإيقاع منها)

اتصرفت فيها بغير وسائل الأسباب المسخرة لسائر الناس ، فأنفق على نفسه وعلى من تبعني بالتصرف فيها بخوارق العادات ، بل أنا وغيري في الكسب سواء ، إذ ذلك ليس من موضوع الرسالة ولا من خصائص النبي ، ولو كان كذلك لاتبع الناس الرسل لأجلها . بل الغاية من بعث الرسل تزكية الأنفس بمعرفة الله وعبادته ، وتأهيلها لمثوبته في دار كرامته ، ورضاه عنها يوم لا ينفع مال ولا بنون .

( ولا أعلم الغيب ) فلا أمتاز عن سائر البشر بعلم ما لا يصل إليه علمهم الكسبي من مصالحهم ومنافعهم ومضارهم في معاشهم وكسبهم ، فأخبر بها أتباعي ليفضلوا عليكم ، ومن ثم أمر الله نبيه أن يقول لقومه : « قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَأَسْتَكْبَرْتُ مِنْ آخِرِي وَمَا مَسَّنِي السُّوءُ » .

( ولا أقول إني ملك ) من الملائكة أرسلت إليكم فأكون كاذبا فيما أدعى ، بل أنا بشر مثلكم أمرتُ بدعائكم إلى الله وقد أبلغتكم ما أرسلت به إليكم . وفي هذا دحض لشبهتهم ، إذ زعموا أن الرسول من الله إلى البشر يجب أن يفضلهم ويمتاز عنهم ، ولا سبيل إلى ذلك إلا بأن يكون ملكا يعلم ما لا يعلمه البشر ، ويقدر على ما لا يقدر عليه البشر .

( ولا أقول للذين تزدري أعينكم لن يؤتيتهم الله خيرا ) أي ولا أقول للذين اتبعوني وآمنوا بالله وحده ، وأنتم تنظرون إليهم نظرة استصغار واحتقار فتزدريهم أعينكم لفقرهم وراثته حالهم : لن يؤتيتهم الله خيرا وهو ما وعدوه على الأيمان والهدى من سعادة الدنيا والآخرة .

( الله أعلم بما في أنفسهم ) أي الله أعلم بما في صدورهم وبما آتاهم من الإيمان على بصيرة ، ومن اتباع رسوله بإخلاص وصدق سريرة ، لا كما زعمتم من اتباعهم إياي بادی الرأي بلا بصيرة ولا علم .

( إني إذا لمن الظالمين ) أي إني إذا قضيت على سائرهم بخلاف ما أبدته لي ألسنتهم على غير علم مني بما في نفوسهم أكون ظلما لهم بهضم حقوقهم .

قَالُوا يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٣٢) قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُمْ بِهِ اللَّهُ إِنْ شَاءَ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ (٣٣) وَلَا يَنْفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أَنْصَحَ لَكُمْ ، إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ ، هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٣٤)

### تفسير المفردات

أصل الجدل . هو الصراع وإسقاط المرء صاحبه على الجدالة وهي الأرض الصلبة  
ثم استعمل في الخصامة والمنازعة بما يشغل عن ظهور الحق ووضوح الصواب ، والنصح :  
تحرى الخير والصلاح للمنصوح له ، والإخلاص فيه قولاً وعملاً ، والإغواء : الإيقاع  
في الغي ، وهو الفساد الحسى والمعنوى ، والإجرام : الفعل القبيح الضار الذى يستحق  
فاعله العقاب .

### المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه شبهاتهم فى رفض نبوة نوح عليه السلام وردّ نوح عليهم بما فيه مَنَعَ لهم لو كانوا يعقلون ، ذكر هنا مقاتهم التى تدل على العجز والإفحام ، وأن الحيل قد ضاقت عليهم فلم يجدوا للرد سبيلاً ، وفى ذلك إيحاء إلى أن الجدل فى تقرير أدلة التوحيد والنبوة والمعاد وفى إزالة الشبهات عنها هى وظيفة الأنبياء ، والتقليد والجهل والإصرار على الباطل والإنكار والجحود هو ديدن الكفار المعاندين .

## الإيضاح

( قالوا يا نوح قد جادلتنا فأكثر جدالنا فأتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين )  
 أى قال قومه له : قد حاجبتنا فأكثر جدالنا واستقصيت فيه فلم تدع حجة  
 إلا ذكرتها حتى مللنا وسئمنا ولم يبق لدينا شيء نقوله كما قال في سورة نوح حكاية عنه :  
 « قَالَ رَبِّي إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا . فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلَّا فِرَارًا » أى  
 فأتنا بما تعدنا من عذاب الله الدينوى الذى تخافه علينا وهو الذى أراه بقوله (إنى أخاف  
 عليكم عذاب يوم أليم) إن كنت صادقاً فى دعواك أن الله يعاقبنا على عصيانه فى الدنيا  
 قبل عقاب الآخرة .

( قال إنما يأتيكم به الله إن شاء وما أنتم بمعجزين ) أى قال لهم نوح حين استمعوا  
 المذاب : يا قوم إن هذا العذاب بيد الله لا أملكه وهو الذى يأتيكم به إن تعلقتم  
 مشيئته فى الوقت الذى تقتضيه حكمته ، ولستم بفاتنينه هرباً منه إن أخره لحكمة يعلمها ،  
 وهو واقع لاحالة متى شاء ، لأنكم فى ملكه وسلطانه ، وقدرته نافذة عليكم .

( ولا ينفعكم نصحى إن أردت أن أنصح لكم إن كان الله يريد أن يغويكم )  
 أى إن نصحى لكم لا ينفعكم بمجرد إرادتى له فيما أَدْعُوكم إليه ، بل يتوقف نفعه على  
 إرادة الله تعالى له ، وقد مضت سنته كما دلت عليه التجارب أن النصح إنما يقبله المستعد  
 للرشاد ، ويرفضه من غلب عليه الفى والفساد ، باجتراحه أسبابه من غرور بغنى  
 وجاه ، أو باتباع هوى وحب شهوات ، تمنع من طاعة الله تعالى .

والخلاصة — إن معنى إرادة الله إغواءهم اقتضاء سننه فيهم أن يكونوا من العاوين  
 لا خلقه للغواية فيهم ابتداء من غير عمل منهم ولا كسب لأسبابها ، فإن الحوادث  
 مرتبطة بأسبابها والنتائج متوقفة على مقدماتها .

( هو ربكم وإليه ترجعون ) أى هو مالك أموركم ومدبرها بحسب سننه المطردة

في الدنيا ، ولكل شيء عنده قدر ، ولكل قدر أجل ، وإليه ترجعون في الآخرة فيجازيكم بما كنتم تعملون من خير وشر ، ولا تظلمون نقيرا .

أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ ، قُلْ إِنْ افْتَرَيْتُهُ فَعَمَلِي إِجْرَامِي وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تَجْرِمُونَ (٣٥) .

### المعنى الجملى

قال مقاتل وغيره : هذه الآية معترضة في قصة نوح حكاية لقول مشركى مكة في تكذيب هذه القصص . وللجمل والآيات المعترضة في القرآن حكم وفوائد ، منها تذييه الأذهان ومنع السامة وتجديد النشاط بالانتقال من غرض إلى آخر والتشويق إلى سماع بقية الكلام ، ومن المتوقع هنا أن يخطر في بال المشركين حين سماع ما تقدم من هذه القصة أنها مفتراة ، لاستغرابهم هذا السبك في الجدل ، والقوة في الاحتجاج فكان إيراد هذه الآية تجديدا للرد عليهم وتجديدا للمشاطهم .

### الإيضاح

( أم يقولون افتراه ) أى بل أقول مشركو مكة : إن محمدا افترى خبر قوم نوح . فأمره الله أن يجيبهم بقوله :

( قل إن افتريته فعلى إجرامى ) أى إن كنت افتريته على الله كما تزعمون فما عليكم في ذلك من بأس ، إنما إنم ذلك وعقابه على ، ومن كان يؤمن أن هذا إجرام يعاقب عليه فاعله ، فما الذى يحمله على افتراهه ؟ .

( وأنا برىء مما تجرمون ) أى كما أنى برىء من آثامكم وذنوبكم ، فحكم الله العدل أن يجزى كل امرئ بعمله كما قال : « وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى » .

وَأَوْحَىٰ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ آمَنَ  
فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ (٣٦) وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحِينَا  
وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ (٣٧) وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ وَكَلَّمَا  
مَرًّا عَلَيْهِ مَلَأَ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ ، قَالَ إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ  
مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ (٣٨) فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ  
وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ (٣٩).

### تفسير المفردات

ابتأس : اشتد بؤسه وحزنه ، والفلك : السفينة ، ويطلق على الواحد والجمع ،  
والمراد بالأعين هنا : شدة الحفظ والحراسة ، وسخر منه : استهزأ به ، ويخزيه : يذله  
ويفضحه : ومقيم : أى دائم :

### المعنى الجملى

بعد أن أخبر سبحانه أن نوحاً قد أكثر في حجاجهم وجدلهم ، وأنه كلما ازداد  
في ذلك زادوا غتوا واطغيانا حتى تعجلوا منه العذاب وقالوا له : اثنتنا بما تعدنا إن كنت  
من الصادقين - فنى على ذلك بذكر ما أبأسه من إيمانهم وأعلمه بأن ذلك كالحال الذى  
لا يكون ؛ فالجدان والحجاج معهم عبث ضائع ، فلن يؤمن منهم إلا من قد حصل منه  
إيمان من قبل . فإياك أن تغتم على ما كان منهم من تكذيب فى تلك الحقبة الطويلة ،  
فقد حان حينهم وأزف وقت الانتقام منهم .

### الإيضاح

( وأوحى إلى نوح أنه لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن فلا تبتئس بما كانوا  
يفعلون ) أى وأوحى الله إلى نوح بعد أن استعجل قومه العذاب ، ودعا عليهم دعوته  
(٣)

التي حكها الله عنه « رَبِّ لَا تَذَرْنِي عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا » : أنه لن يؤمن أحد منهم فيتبعك على ما تدعوه إليه إلا من قد آمن من قبل فيظل على إيمانه فلا يشتد عليك البؤس والحزن بعد اليوم ، بما كانوا يفعلون في السنين الطوال من العناد والإيذاء والتكذيب لك ولمن آمن معك ، فأرح نفسك بعد الآن من جداهم ومن إعراضهم واحتقارهم ، فقد آن زمن الانتقام ، وحان حين العذاب .

( واصنع الفلك بأعيننا ووحينا ) أى واصنع الفلك الذى سننجيك ومن آمن معك فيه وأنت محروس ومراقب برعايتنا ، أى إننا حافظوك فى كل آن ، فلا يمنعك من حفظنا مانع ، ولملموك ومعلموك بوحينا كيف تصنعه ، فلا يعرضنَّ لك خطأ فى صنعه ولا فى وصفه .

ونحو الآية قوله لموسى « وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي » وقوله لمحمد صلى الله عليه وسلم « وَأَضِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا » .

( ولا تخاطبني فى الذين ظلموا إنهم مفرقون ) أى ولا تراجعني فى شيء من أمرهم من دفع العذاب عنهم وطلب الرحمة لهم ، فقد حقت عليهم كلمة العذاب وقضى عليهم بالإغراق .

والخلاصة — لا تأخذك بهم رافة ولا شفقة .

( ويصنع الفلك وكلامر عليه ملا من قومه سخروا منه ) أى وشرع يصنع الفلك وكلامر عليه جماعة من كبراء قومه استهزؤا به وضحكوا منه ، وتنادروا عليه ظنا منهم أنه أصيب بالهوس والجنون .

روى أنهم قالوا له : أتحولت نجارا بعد أن كنت نبياً ، وليس ذلك بالغريب منهم فإنه مامن أحد يسبق أهل عصره بما فوق عقولهم من قول أو فعل إلا سخروا منه قبل أن يكتب له النجاح فيه .

( قال إن تسخروا منا فإننا نسخر منكم كما تسخرون ) أى قال نوح مجيباً لهم عن سخريتهم ، إن تسخروا منا اليوم وتستجهلونا لرؤيتكم مالاتصورون له فائدة ، فإننا نسخر منكم كما تسخرون جزاء وفاقاً ، نسخر منكم اليوم لجهلكم ، وغداً لما سيحلّ بكم .  
 ( فسوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه ويحل عليه عذاب مقيم ) أى فإن كنتم لاتعلمون اليوم فائدة ما نعمل وما له من عاقبة محمودة فسوف تعلمون بعد تمامه من يأتيه عذاب يفضحه ويحلب له العار والخزي فى الدنيا وهو عذاب الفرق ، ويحل عليه عذاب دائم فى الآخرة بعد ذلك ، وكل مافى الدنيا فهو هين لين بالنسبة إلى ما يكون فى الآخرة لاتقضائه وزواله ، وبقاء ذاك ودوامه .

حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ  
 أُنثَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ ، وَمَا آمَنَ مَعَهُ  
 إِلَّا قَلِيلٌ (٤٠) وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِاسْمِ اللَّهِ مَجْرِيهَا وَمُرسَاهاَ إِنَّ رَبِّي  
 لَنَفُورٌ رَحِيمٌ (٤١) وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ ، وَنَادَىٰ نُوحٌ  
 ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَا بُنَيَّ اذْكَبْ مَعَنَا وَلَا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ (٤٢)  
 قَالَ سَأَوْىٰ إِلَىٰ جِبَلٍ يَمْعِمُنِي مِنَ الْمَاءِ قَالَ لَأَعاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ  
 إِلَّا مَنْ رَحِمَ ، وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرِقِينَ (٤٣) وَقِيلَ يَا أَرْضُ  
 ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءِ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَىٰ  
 الْجُودِيِّ ، وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (٤٤) .

### تفسير المفردات

النور والفوران : الارتفاع القوى ، يقال فى الماء إذا نبع وجرى ، وإذا غلا

وارتفع ، والمراد منه هنا اشتداد غضب الله على أولئك المشركين الظالمين لأنفسهم وللناس ، وحلول وقت انتقامه منهم ، والتنور : ما يخبز فيه الخبز ، انفقت فيه لغة العرب والعجم وأهل بيت الرجل : نساؤه وأولاده وأزواجهم ، ومجربها ومرساها : أى إجراؤها وإرساؤها ، ومعزل : أى مكان عزلة وانفراد ، وآوى : أى ألبأ ، وعصمه : حفظه ، والبلع : ازدياد الطعام والشراب بسرعة ، وغاض الماء غار فى الأرض ونضب ، والجودى : جبل بالموصل .

### المعنى الجملى

هذه الآيات غاية لما ذكر قبلها من الاستعداد لهلاكهم ، ومقابلة السخرية بغير ابتئاس ولا ضجر .

### الايضاح

( حتى إذا جاء أمرنا وفار التنور ) أى حتى إذا جاء وقت أمرنا بهلاكهم ، ونبع الماء من التنور وارتفع بشدة كما تفور القدر بغليانها ، وكان ذلك علامة لنوح عليه السلام ، والأقرب أن يكون المراد من التنور وجه الأرض ، ويكون المعنى حتى إذا نبع الماء من وجه الأرض .

( قلنا احمل فيها من كل زوجين اثنين ) أى حتى إذا أمرنا قلنا لنوح آتئذ : احمل فى السفينة من كل نوع من أنواع الحيوان زوجين اثنين ذكرا وأنثى ، لتبقى بعد غرق سائر الأحياء فتتناسل ويبقى نوعها على الأرض .

( وأهلك إلا من سبق عليه القول ومن آمن ) أى واحمل فيها أهل بيتك ذكرا وإناثا إلا من سبق عليه القول بأنهم من المفرقين بسبب ظلمهم كما قال : ( ولا تخاطبني فى الذين ظلموا إنهم مفرقون ) واحمل من صدقك واتبعك من قومك .

( وما آمن معه إلا قليل ) منهم ، قيل إنهم كانوا ثمانية : نوحا عليه السلام وأهله

وأبناءه الثلاثة وأزواجهم ، ولم يبين الله ورسوله لنا عددهم ، خصمه في عدد معين من قبيل الخدس والتخمين ، كما لم يبين لنا أنواع الحيوان التي حملها ولا كيف حملها وأدخالها السفينة ، وقد فصل ذلك في سفر التكوين .

( وقال اركبوا فيها باسم الله مجريها ومرساها ) أى حملهم نوح وقال اركبوا فيها باسم الله جريانها وإرساؤها ، فهو الذى يتولى ذلك بحوله وقوته ، وحفظه وعنايته ، وقد يكون المعنى : إن نوحا أمرهم بأن يقولوها كما يقولها على تقدير : اركبوا فيها قائلين باسم الله أى بتسخيره وقدرته مجراها حين تجرى ، ومرساها حين يرسبها ، لاجلنا ولا بقوتنا .

( إن ربى لغفور رحيم ) أى إن ربى لواسع الغفرة لعباده حيث لم يهلكهم بذنوبهم ، بل يهلك الكافرين الظالمين منهم ، رحيم بهم إذ سخر لهم هذه السفينة لنجاة بقية الإنسان والحيوان من هذا الطوفان الذى اقتضته مشيئته .

أخرج الطبرانى وغيره عن الحسن بن على رضى الله عنه أنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « أمان لأمتى من العرق إذا ركبوا الفلك أن يقولوا : باسم الله الملك الرحمن الرحيم ( باسم الله مجريها ) الآية » .

( وهى تجرى بهم فى موج كالجبال ) أى هى تجرى بهم فى موج يشبه الجبال فى علوه وارتفاعه وامتداده ، ومن كابد ما يحدث فى البحار العظيمة من الأمواج حين ماتهيجها الرياح الشديدة عرف أن المبالغة فى هذا التشبيه غير بعيدة ، فإن السفينة لترى كأنها تهبط فى غور عميق كواد سحيق يرى البحر من جانبيه كجبلين عظيمين يكادان يطبقان عليها ، وبعد هنيهة يرى أنها قد اندفعت إلى أعلى الموج كأنها فى شاق جبل تريد أن تنقض منه ، والملاحون يربطون أنفسهم بالجبال على ظهرها وجوانبها لئلا يجرّفهم ما يفيض من الموج عليها .

ثم بين أن نوحا دعتة الشفقة على ابنه فداده كما أشار إلى ذلك بقوله :

( ونادى نوح ابنه وكان فى معزل : يا بنى اركب معنا ولا تكن مع الكافرين )

أى وناداه حين الركوب في السفينة ، وقبل أن تجرى بهم ، وكان في مكان منعزل بعيد عن أبيه وإخوته ومن آمن من قومه ، يابى اركب معنا الفلك ولا تكن مع الكافرين الذين قُضِيَ عليهم بالهلاك .

فردّ ابنه عليه :

( قال ساوى إلى جبل يعصمى من الماء ) أى قال سأصير إلى جبل أتحصن به من

الماء فيحفظنى من العرق :

فأجابه نوح مبيّناً له خطأه :

( قال لاعاصم اليوم من أمر الله إلا من رحم ، وحال بينهما الموج فكان من

المفرقين ) أى قال نوح لابنه لاشيء يعصم أحدا في هذا اليوم العصيب من عذاب الله

الذى قضاه على الكافرين ، فليس الأمر أمر ماء يتقى بالأسباب العادية ، وإنما هو

انتقام من أشرار العباد الذين أشركوا بالله وظلموا أنفسهم وظلموا الناس بطغيانهم

في البلاد ، لكنه يحفظ من رحم ويعصمه ، وقد اختص بهذه الرحمة من حملهم

في السفينة ، وكان الماء قد بدأ يرتفع أثناء الحديث حتى حال بين الولد ووالده فكان

من المفرقين الهالكين .

وقد وصف سبحانه هذا الطوفان في سورة القمر قال : « كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ

فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ ، فدَعَا رَبُّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَأَنْتَصِرْ ، فَفَتَحْنَا

أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ ، وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ،

وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ أَلْوَابٍ وَّدُسِيرٍ ، تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَاءَ لِمَن كَانَ كُفِرَ ، وَلَا نَدْرُ

تَرَكَهَا آيَةً فَهَلْ مِنْ مَدَّ كِرٍ ، فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذْرٍ . »

وإنه لمنظر تشيب من هوله الولدان ، ماء ينهمر من السماء انهمارا ، وأرض تتفجر

فتفيض ماء نجاجا يصير بحرا متلاطم الأمواج ، تغطت من تحته الأرض بجبالها ووديانها ،

وخفيت من فوقه السماء بكواكبها وشمسها ، وكانت عليه السفينة كما كان عرش الله على الماء في بدء التكوين .

ثم ذكر ما حدث بعد هلاكهم مبينا قدرته تعالى فقال :

(وقيل يا أرض ابلعي ماءك وياسماء ألقى وغيض الماء ، وقضى الأمر واستوت على الجودى وقيل بعدا للقوم الظالمين ) أى وجاء نداء من الملائكة الأعلى خوطبت به الأرض والسماء : يا أرض ابلعي ماءك الذى عليك والذى تفجر من باطنك ، وياسماء كفى عن المطر ، فلم يلبث أن غاض الماء امتثالا للأمر ، وقضى الأمر بإهلاك الظالمين واستقرت السفينة راسية على جبل الجودى ، وقيل هلاكا وسحقا للظالمين ، وبعدا لهم من رحمة الله بما كان من ظلمهم وفقد الاستعداد للتوبة والرجوع إلى الله عز وجل .

وَنَادَى نُوحٌ رَبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ  
وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ (٤٥) قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ  
عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا تَسْأَلْنِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ  
مِنَ الْجَاهِلِينَ (٤٦) قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ  
وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُنْ مِنَ الْخَاسِرِينَ (٤٧) قِيلَ يَا نُوحُ اهْبِطْ  
بِسَلَامٍ مِنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَى أُمَمٍ مِمَّنْ مَعَكَ ، وَأُمَّمٌ سَمَّيْتَهُمْ ثُمَّ  
يَمْسُهُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ (٤٨) تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ  
مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا ، فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ  
لِلْمُتَّقِينَ (٤٩) .

## المعنى الجملى

الآيات الثلاث الأولى تبين أن حكم الله فى خلقه العدلُ بلا محاباة لولىّ ولانبي ، وأن الأنبياء قد يجوز عليهم الخطأ فى الاجتهاد ويمدّد ذلك ذنبا بالنظر إلى مقامهم الرفيع ومعرفتهم بربهم ، وذلك ماعرض له نوح عليه السلام من الاجتهاد فى أمر ابنه الذى تخلف عن السفينة فكان من المفرقين ، كما أن فى الآية الأخيرة استدلالا على نبوة محمد صلى الله عليه وسلم وطلب صبره على أذى قومه .

## الايضاح

(ونادى نوح ربه فقال رب إن ابني من أهلى ، وإن وعدك الحق وأنت أحكم الحاكمين) أى ونادى نوح ربه إثر ندائه لابنه الذى تخلف عن السفينة ودعاه إليها فلم يستجب ، فقال يارب إن ابني هذا من أهلى الذى وعدتني بنجاتهم إذ أمرتني بمجملهم فى السفينة ، وإن وعدك الحق الذى لاخُفّ فيه ، وأنت خير الحاكمين بالحق ، كما قلت « وَمَنْ أَحْسَنُ مِنْ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ » فحكّمك يصدر عن كمال العلم والحكمة فلا يعرض له الخطأ ولا الحيف والظلم .

والمخلاصة— إن نوحا كان يريد أن ينجوا ابنه الذى تخلف عن السفينة من الغرق بعد أن دعاه إليها ، ومن البين أن هذا الدعاء لا بد أن يكون بعد المحاوراة مع ابنه قبل أن يحول بينهما الموج .

( قال يانوح إنه ليس من أهلك إنه عمل غير صالح ) أى قال تعالى : يانوح إنه ليس من أهلك الذين أمرتك أن تحملهم فى الفلك لإنجائهم ، وقد بين سبحانه سبب ذلك بأنه ذو عمل غير صالح : أى فهو يتنكبّ الصلاح ويلتزم الفساد .

( فلا تسألن ما ليس لك به علم ) أى فلا تسألنى فى شىء ليس لك به علم صحيح ، وقد سئى دعاءه سؤالاً ، لأنه تضمن ذكر الوعد بنجاة أهله ، ومارتبه عليه من طلب نجاة ولده .

وفى الآية إيحاء إلى أنه لا يجوز الدعاء بطلب ما هو مخالف لسنن الله فى خلقه بإرادة قلب نظام الكون لأجل الداعى ، ولا بطلب ما هو محرم شرعاً ، وإنما يجوز الدعاء بتسخير الأسباب والتوفيق فيها والهداية إلى العلم بالجهول من السنن والنظام ، لكثرة من عمل الخير ، ويزيد من عمل البر والإحسان .

( إني أعظك أن تكون من الجاهلين ) أى إني أنهاك أن تكون من زمرة من يجهلون ، فيسألونه تعالى أن يبطل حكمته وتقديره فى خلقه ، إجابة لشهواتهم وأهوائهم فى أنفسهم أو أهلهم أو محبيهم .

وفى ذلك دليل على أن من أكبر الجهالات أن نسأل بعض الصالحين والأولياء مانهى الله عنه نبياً من أولى العزم من رسله أن يسأله إياه ، فإن ذلك يقضى بأن الله يعطيهم ما لم يعط مثله لرسله .

ثم ذكر طلب نوح المغفرة من ربه على ما فرط منه من السؤال فقال حاكياً عنه :  
( قال رب إني أعوذ بك أن أسألك ما ليس لى به علم وإلا تغفر لى وترحنى أكن من الخاسرين ) أى قال نوح رب إني ألتجئ إليك وأحتسب بك من أن أسألك بعد الآن شيئاً لا أعلم أن حصوله مقتضى الحكمة ، وإن لم تغفر لى ذنب هذا السؤال الذى سؤلته لى الرحمة الأبوية وطمعى فى الرحمة الربانية ، وترحنى بقبول توبتى برحمتك التى وسعت كل شىء - أكن من الخاسرين فيما حاولته من الرجح بنجاة أولادى كلهم وسعادتهم بطاعتك وأنت أعلم بهم منى .

والعبرة فى الآية من وجوه :

(١) إن مأسأله نوح لابنه لم يكن معصية لله تعالى خالف فيها أمره أو نهيه ، وإنما

كان خطأ في اجتهادِ بنيةِ صالحة ، وعدَّ هذا ذنباً ، لأنه ما كان ينبغي لمثله من أرباب العلم الصحيح اللائق بمنزلته من ربه ، ومثل هذا الاجتهاد لم يعصم منه الأنبياء ، فهم يقومون فيه أحياناً ليشعروا بمحاجتهم إلى تأديب ربهم وتكميله إياهم حيناً بعد حين .

(٢) إنه لا علاقة للصالح بالوراثة والأنساب ، بل يختلف ذلك باختلاف استعداد الأفراد وما يحيط بهم من البيئة والآراء والمعتقدات ، ولو كان للوراثة تأثير كبير لكان جميع أولاد آدم سواء ، ولكان سلائل أبناء نوح المؤمنين الذين نجوا معه في السفينة كلهم مؤمنين .

(٣) إنه تعالى يجزى الناس في الدنيا والآخرة بإيمانهم وأعمالهم ، لا بأنسابهم ، ولا يحابي أحداً منهم لأجل الآباء والأجداد وإن كانوا من الأنبياء والمرسلين .

(٤) إن من يفتخر بنسبه ولا يعمل ما يرضى ربه ، ويزعم أنه أفضل من العلماء العاملين والأولياء الصالحين ، فهو جاهل بكتاب ربه الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه .

(قيل يانوح اهبط بسلام منا وبركات عليك وعلى أمم ممن معك وأمم سنمتعهم ثم يمسهم منا عذاب أليم) أى قال الذى بيده ملكوت كل شئ ومدبر أمر العالم كله لنوح، بعد أن انتهى الطوفان ، وأقلعت السماء عن المطر ، وابتلعت الأرض ماءها وصارت السكنى على الأرض والعمل عليها سهلاً ممكناً : يانوح اهبط من الجودى الذى استوت عليه السفينة ، ممتعاً بسلام وتحية منا كما قال تعالى « سَلَامٌ عَلَى نُوْحٍ فِي الْعَالَمِينَ » وبركات في المعاش والأرزاق تفيض عليك وعلى من معك في السفينة وعلى ذريات يتناسلون منهم ويتفرقون في الأرض فيكونون أمماً مستقلاً بعضها من بعض ، ومنهم أمم آخرون من بعدهم سنمتعهم في الدنيا بالأرزاق والبركات ، ولا يصيبهم لطف من ربهم ورحمة منه كما يُصيب المؤمنين ، فإن الشيطان سيغويهم ويزين لهم الشرك والظلم والبغى ، ثم يمسهم العذاب الأليم في الدنيا والآخرة ، لأنهم لا يحافظون

على السلام ، بل يبنى بعضهم على بعض لتفرقهم واختلافهم في هداية الدين التي بعث بها المرسلون ، ويكون جزاؤهم في الآخرة النار وبئس القرار .

ثم ذكر لنبية صلى الله عليه وسلم أن هذا قصص من عالم الغيب لا يعرفه هو ولا قومه من قبل فقال: (تلك من أنباء الغيب نوحيها إليك ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا) أى هذا القصص الذى قصصته عليك من خبر نوح وقومه من أخبار الغيب التى لم تشهدا حتى تعلمها ، نوحيها إليك نحن فنعرف فكيف تفصيلا ، وما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل الوحي الذى نزل مبينًا لها ، وربما كان يعلمها هو وقومه على سبيل الإجمال .

( فاصبر إن العاقبة للمتقين ) أى فاصبر على القيام بأمر الله وتبليغ رسالته وما تلقى من قومك من أذى كما صبر نوح على قومه ، فإن سنة الله فى رسله وأقوامهم أن تكون العاقبة بالفوز والنجاة للمتقين الذين يحتنبون المعاصى ويعملون الطاعات ، فأنتم الفائزون المفلحون ، والمصرّون على عداوتكم هم الخاسرون الهالكون .

## تتمة لقصة نوح عليه السلام

هل كان الطوفان عامًا أو خاصًا ؟

سئل الأستاذ الإمام محمد عبده في ذلك ؛ فأجاب بما يلي :

ليس في القرآن نص قاطع على عموم الطوفان ولا على عموم رسالة نوح عليه السلام ، وماورد من الأحاديث على فرض صحة سنده فهو آحاد لا يوجب اليقين ، والمطلوب في تقرير مثل هذه الحقائق هو اليقين لا الظن إذا عدّ اعتقادها من عقائد الدين .

وأما المؤرخ ومريد الاطلاع فله أن يحصل من الظن ما ترجحه عنده ثقتة بالراوى أو المؤرخ أو صاحب الرأى ، وما يذكره المؤرخون والمفسرون في هذه المسألة لا يخرج عن حد الثقة بالرواية أو عدم الثقة بها ، ولا تتخذ دليلا قطعيا على معتقد دينى .  
من أجل هذا كانت هذه المسألة موضوع نزاع بين أهل الأديان وأهل النظر في طبقات الأرض ، وموضوع خلاف بين مؤرخى الأمم .

فأهل الكتاب وعلماء الأمة الإسلامية على أن الطوفان كان عاما لكل الأرض ، وواقفهم على ذلك كثير من أهل النظر ، واحتجوا على رأيهم بوجود بعض الأصداف والأسماك المتحجرة فى أعالي الجبال ، لأن هذه الأشياء مما لا تتكون إلا فى البحر ، فظهورها فى رؤس الجبال دليل على أن الماء صعد إليها مرة من المرات ، ولن يكون ذلك حتى يكون قد عم الأرض .

ويزعم غالب أهل النظر من المتأخرين أن الطوفان لم يكن عامًا ، ولهم على ذلك شواهد يطول شرحها ، غير أنه لا يجوز لمسلم أن ينكر قضية أن الطوفان كان عاما لمجرد احتمال التأويل فى آيات الكتاب العزيز ، بل على كل من يعتقد بالدين ألا ينفى شيئاً مما يدل عليه ظاهر الآيات والأحاديث التى صح سندها وينصرف عنها إلى التأويل إلا بدليل عتلى يقطع بأن الظاهر غير مراد ، والوصول إلى ذلك فى مثل هذه المسألة يحتاج

إلى بحث طويل وعناء شديد . وعلم غزير في طبقات الأرض وما تحتوى عليه ، وذلك يتوقف على علوم شتى عقلية ونقلية ، ومن هذى برأيه بدون علم يقينى فهو مجازف لا يسمع له قول ، ولا يسمع له بيت جهالاته ، والله ورسوله أعلم اهبتصرف .  
 وخالصة هذا — إن ظواهر القرآن والأحاديث تدل على أن الطوفان كان عامًا شاملًا لقوم نوح الذين لم يكن في الأرض غيرهم فيجب اعتقاده ، ولكنه لا يقتضى أن يكون عامًا للأرض ، إذ لا دليل على أنهم كانوا يملثون الأرض ، وكذلك وجود الأصداف والحيوانات البحرية في قُنى الجبال لا يدل على أنها من أثر ذلك الطوفان ، بل الأقرب أنه كان من أثر تكوّن الجبال وغيرها من اليابسة في الماء ، فإن صعود الماء إلى الجبال أياما معدودة لا يكفي لحدوث ما ذكر فيها .

ولما كانت هذه المسألة التاريخية ليست من مقاصد الدين لم يبينها بنص قطعى ، ومن ثم نقول إنه ظاهر النصوص ولا نتخذة عقيدة دينية قطعية ، فإن أثبت علم طبقات الأرض ( الجيولوجيا ) خلافه فلا يضيرنا ، لأنه لا ينقض نصًا قطعيًا عندنا .

## حادثة الطوفان

في القرآن والتوراة والتاريخ القديم

ذكرنا فيما سلف أن أحداث التاريخ وضبط وقائمه وأزمنتها وأمكنتها ليس من مقاصد القرآن ، وأن مافيه من قصص الرسل مع أقوامهم فإنما هو بيان لسنة الله فيهم . وذكرنا أيضا أن قصة نوح عليه السلام جاءت في عدة سور في كل سورة منها ما ليس في سائرهما ، ولم يذكر من حادثة الطوفان إلا مافيه العبرة والموعظة .

وجاءت هذه القصة في سفر التكوين في أربعة فصول ذكر في أولها سبب الطوفان وهو في جملته على نحو ما جاء في القرآن الكريم إلا أن الأسلوب على نحو أساليب التوراة ، وذكر في الرابع منها رجوع المياه من الأرض بالتدريج واستقرار الفلك على جبل أراراط ثم خروج نوح ومن معه من السفينة .

وقد ورد في تواريخ أكثر الأمم القديمة ذكر الطوفان ، منها ما هو موافق لما في سفر التكوين ، ومنها ما هو مخالف له ؛ فروى اليونان خبرا عن الطوفان أورده أفلاطون قال : إن كهنة المصريين قالوا لسولون ( الحكيم اليوناني ) إن السماء أرسلت طوفانا غير وجه الأرض ، ورؤى عن قدماء الفرس طوفان أغرق الله به الأرض بما انتشر فيها من الفساد والشر بفعل ( اهريمان ) إله الشر ، وقالوا إن هذا الطوفان فار أولا من تنور العجوز ( زول كوفه ) إذ كانت تحبز خبزها فيه ، ولكن الجوس أنكروا عموم الطوفان وقالوا إنه كان خاصا بإقليم العراق وانتهى إلى حدود كردستان .

### عمر نوح عليه السلام

جاء في الكتاب الكريم في سورة العنكبوت : « وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ » .  
وجاء في سفر التكوين نحو من هذا ، وقد اشتبه الأمر على الناس في أزمنة مختلفة حتى زعم بعضهم أن السنة عند المتقدمين أقل من السنة عند أهل القرون المعروفة بعد تدوين التاريخ ، ولا دليل على هذا .

والذي يظهر أن أعمار آدم وذريته إلى ما قبل الطوفان أو قبل ما كشف من آثار التاريخ لاتقاس بما عرف بعد ذلك ، لأن معيشة الإنسان الفطرية كانت أسلم للأبدان وأقل توليدا للأمراض : وقول الله هو الحق ويجب الإيمان به على كل حال ، قال الشاعر :

نجيت يارب نوحا واستجبت له      في فلكٍ ماخرٍ في اليمِّ مشحونا  
وعاش يدعو بآيات مبينة      في قومه ألف عام غير خمسينا

### قصة هود عليه السلام

وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهِ غَيْرُهُ إِنِّي أَنذَرْتُكُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ (٥٠) يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنِّي

أَجْرِي إِلَّا عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي أَفَلَا تَعْقِلُونَ (٥١) وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا  
رَبَّكُمْ ثُمَّ تَوْبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى  
قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ (٥٢)

### المعنى الجملى

هذا القصص ذكر في سورة الأعراف بأسلوب ونظم يخالف ما هنا ، وفي كل منهما  
من العظة والعبرة ما ليس في الآخر ، وسيأتي في السور التالية بسياق آخر .  
وقد جاء في بعض الروايات أن هودا أول من تكلم بالعربية ، فهو أول رسول عربى  
من ذرية نوح ، وآخر رسول هو محمد صلى الله عليه وسلم وهو عربى أيضا .

### الايضاح

( وإلى عاد أخاهم هودا قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره إن أتم  
إلا مفترون ) أى وأرسلنا إلى عاد الأولى أخاهم فى النسب والوطن هودا فقال لهم :  
يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره فلا تعبدوا من دونه وثناً ولا صنأ ، فإ أتم  
فى عبادتكم غيره من الأنداد والشركاء إلا مفترون الكذب عليه بتسميتكم إياهم شفعاء  
تقر بون بهم أو بقبورهم أو بصورهم وتماثيلهم وترجون النفع وكشف الضر عنكم بإياهم عنده .  
( يا قوم لا أسألكم عليه أجرا إن أجرى إلا على الذى فطرنى أفلا تعقلون ) أى  
يا قوم لا أسألكم على ما أدعوكم إليه من إخلاص العبادة لله والبراءة من الأوثان أجرا  
فتهمونى بأنى أريد المنفعة لنفسى ، ما ثوابى الذى أرجوه على تبليغى إياكم إلا على الله  
الذى خلقنى على الفطرة السليمة مبرأ من هذه البدع الوثنية التى ابتدعها قوم نوح حين  
صنعوا التماثيل لحفظ ذكرى الصالحين ، فزين لهم الشيطان تعظيم هذه التماثيل فعبدوها ،  
أفلا تعقلون ما يقال لكم فتميزوا بين ما يضر وما ينفع ، وإنى لكم ناصح أمين فلا أغشكم  
فيا أدعوكم إليه .

(وياقوم استغفروا ربكم ثم توبوا إليه يرسل السماء عليكم مدرارا ويزدكم قوة إلى قوتكم) السماء هنا: المطر، والمدرار: الكثير الدرور، وأصله في كثرة درّ اللبن، يقال درت الشاة تدّرّ فهي دار: أي أكثر فيض لبنها، أي ياقوم استغفروا ربكم من الشرك ثم أخلصوا له التوبة، يرسل عليكم المطر متتابعاً من غير ضرر (وقد كانوا أصحاب زروع وبساتين وعمائر) ويزدكم عزاً إلى عزم وقد كانوا يهتمون بذلك ويفخرون على الناس، وقد بسط الله لهم الأجسام وأعطوا القوة فيها كما قال تعالى: «فَأَمَّا آدُ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً؟ أُولَئِكَ يَرَوْنَ أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ . فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَحِسَاتٍ لِنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْزَى وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ» .

(ولا تتولوا مجرمين) أي ولا تعرضوا عما دعوتكم إليه مما ربما كان سبباً في نعيم العيش وسعة الرزق وزيادة القوة، وأنتم مصرون على ما أنتم عليه من الإجمام .

قالوا يا هود ما جئتنا ببينة، وما نحن بتاركي آلِهتنا عن قولك وما نن لك بمؤمنين (٥٣) إن نقول إلا اعتراك بعض آلِهتنا بسوء، قال إني أشهد الله وأشهدوا أنني بريء مما تشركون (٥٤) من دونه فكيدوني جميعاً ثم لا تنظرون (٥٥) إني توكلت على الله ربي وربكم ما من دابة إلا هو آخذٌ بناصيتها إن ربي على صراطٍ مستقيم (٥٦) فإن تولوا فقد أبلغتكم ما أرسلت به إليكم، ويستخلف ربي قوماً غيركم ولا تضرّونه شيئاً إن ربي على كل شيء حفيظ (٥٧)

## المعنى الجملى

بعد أن ذكر تبليغ هود عليه السلام قومه دعوة ربه ، ذكر هنا ردّ قومه لتلك الدعوة في جحودهم للبينة ، ثم إنذاره لهم .

## الايضاح

( قالوا يا هود ماجئتنا بيينة وما نحن بتاركى آلهتنا عن قولك وما نحن لك بمؤمنين )  
 أى قالوا يا هود : ماجئتنا بحجة واضحة تدل على صحة دعواك أنك مرسل من عند الله .  
 وقد قالوا ذلك عنادا منهم وجحودا للحق ، وما نحن بتاركى عبادة آلهتنا بسبب قولك  
 الذى لا بيينة عليه ، وما نحن بمصدقين ماجئت به .  
 ثم بالغوا فى الردّ وقالوا :

( إن نقول إلا اعتراك بعض آلهتنا بسوء ) أى لانجد من قول نقوله فيك إلا  
 أن بعض آلهتنا أصابك بمسّ من جنون أو خبيل لإنكارك لها وصدك إيانا عن عبادتها .  
 والخلاصة — إن ما نقوله لا يصدر إلا عن أصيب بشيء اقتضى خروجه عن  
 قانون العقل ، فلا يمتدّ به لأنه من قبيل الخرافات والهذيان التى لاتصدر إلا عن  
 المجانين فكيف تؤمن بك ؟ .

والخلاصة — إنهم ترقوا فى حجاجهم من سبى إلى أسوأ ، إذ قالوا أولا ماجئتنا  
 بالبينة : ثم نفوا تصديقهم له مع كونه مما يقبل التصديق ، ثم نفوا عنه تلك المرتبة أيضا .  
 ثم ذكر رده عليهم على طريق الحكاية .

( قال إني أشهد الله واشهدوا أنى ربى ، مما تشركون من دونه فكيدونى جميعا  
 ثم لاتنظرون . إني توكلت على الله ربى وربكم ما من دابة إلا هو آخذ بناصيتها ، إن  
 ربى على صراط مستقيم ) .

هذا جواب منه عن مقالاتهم وهو يتضمن جملة أمور :

(١) البراءة من إشراكهم الذى اقترفوه ولا حقيقة له .

(٢) إسهاد الله على ذلك ثقة منه بأنه على بينة من ربه .

(٣) إسهادهم أيضا على ذلك إعلاما منه بعدم مبالاته بهم وبما يزعمون من قدرة شركائهم على إيذائه وضرره :

(٤) طلبه منهم أن يُجْمِعُوا كلمهم على الكيد له والإيقاع به بلا إمهال ولا تأخير إن استطاعوا .

وفي هذا دليل واضح على أنه لا يخافهم ولا يخاف آلهتهم ، وقد صدرت مثل هذه المقالة عن نوح عليه السلام إذ قال « فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلَا تَنْظِرُونِ » كما لقن الله نبيه مثل هذا بقوله « قُلِ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنظِرُونِ » .

(٥) عدم الخوف منهم ومن آلهتهم ، إذ وكل أمر حفظه وخذلانهم إلى ربه وربهم ، ومالك أمره وأمرهم ، المتصرف في كل مادب على وجه الأرض والمسخر له وهو سبحانه مطلع على أمور العباد ، مجاز لهم بالثواب والعقاب ، كافٍ لمن اعتصم به ، وهو لا يسلط أهل الباطل من أعدائه على أهل الحق من رسله ولا يفوته ظالم .

(فإن تولوا فقد أبلغتكم ما أرسلت به إليكم) أي فإن استمررتم على ما أتمت عليه من التولي والإعراض وأبئتم إلا تكذبي ، فقد أبلغتكم رسالة ربي التي أرسلني بها إليكم ، وليس على غير البلاغ وقد لزمتمكم الحجة وحقت عليكم كلمة العذاب .

(ويستخلف ربي قوما غيركم) أي إن الله يهلككم ويستخلف في دياركم وأموالكم قوما آخرين .

(ولا تضرونه شيئا) بتوليكم عن الإيمان ، فإنه غني عنكم وعن إيمانكم ، وهو بمعنى قوله « إِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنْكُمْ وَلَا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ ، وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ » .

(إن ربي على كل شيء حفيظ) أي إن ربي رقيب على كل شيء قائم بالحفظ

عليه على ما اقتضته سننه وتعلقت به إرادته ، ومن ذلك أنه ينصر رسله ويخذل أعداءهم إذا أصروا على الكفر بعد قيام الحجة عليهم .

وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَنَجَّيْنَا هُمْ  
مِنَ عَذَابِ غَلِيظٍ (٥٨) وَتِلْكَ آيَاتُ جَعْدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُ  
وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ (٥٩) وَاتَّبِعُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لِمَنَّةٍ  
وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ ، أَلَا إِنَّ عَادًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ ، أَلَا بُعْدًا لِعَادِ قَوْمِ  
هُودٍ (٦٠) .

### المعنى الجملى

بعد أن ذكر عز اسمه إصرار قوم هود على العناد والعتو وتكذيب هود فيما جاء به من الآيات - ذكر هنا عاقبة أمره وأمرهم ، وأنه تعالى أصابه برحمة من لدنه ، وأنزل بهم العذاب الغليظ ، كفاء كفرهم بآياته وعصيان رسله .

### الايضاح

( ولما جاء أمرنا نجينا هودا والذين آمنوا معه برحمة منا ونجيناهم من عذاب غليظ أى ولما نزل عذابنا نجينا هودا والذين آمنوا معه برحمة من لدنا وميزناهم عن الكافرين فيما نزل بهم من ذلك العذاب الغليظ ، وهو الريح العقيم التي لا تذر من شيء أتت عليه إلا جعلته كالرميم ، كما فصل ذلك في سورة القمر بقوله : « إنا أرسلنا عليهم ريحا صرصرا في يوم نحس مستمر ، تنزعُ الناسَ كأنهمُ أعجازُ نخلٍ منقعرٍ » .

ثم ذكر سبب ما نزل بهم من البلاء فقال :

( وتلك عاد جعدوا بآيات ربهم وعصوا رسله واتبعوا أمر كل جبار عنيد )  
أى وقد أحلنا بهم نعمتنا ، لأنهم جعدوا بآيات ربهم وحججه ، وعصوا رسله الذين

أرسلهم إليهم للدعاء إلى توحيدِهِ واتباع أمرِهِ ، وهم وإن كانوا قد عصوا رسولا واحدا فإن عصيان واحد منهم عصيان للجميع ، لأنه ما كان إلا لنفي الرسالة نفسها بدعوى أن الرسول لا يكون بشرا .

وقد اتبع سوادهم ودهماؤهم كل جبار عنيد من رؤسائهم الطغاة العتاة المستبدين الذين يأتون الحق ولا يذعنون له وإن قام عليه الدليل .

(وأتبعوا في هذه الدنيا لعنة ويوم القيامة) أى ولحقت بهم لعنة في هذه الدنيا ، فكان كل من علم بحالهم ومن أدرك آثارهم ، وكل من بلغه الرسل من بعدهم خبرهم يلعنونهم ، وتلحقهم أيضا يوم القيامة حين ما يلعن الأشهاد الظالمين أمثالهم : قال قتادة : تتابعت عليهم لعنتان من الله ، لعنة في الدنيا ولعنة في الآخرة .

ثم أكد كفرهم بشهادته عليهم فقال :

(ألا إن عادا كفروا ربهم) أى إن عادا كفروا نعمه عليهم بمجرد آياته وتكذيبهم لرسله كبراً وعناداً .

(ألا بعدا لعاد قوم هود) هذا دعاء عليهم بالهلاك والبعد من الرحمة ، وهو تسجيل عليهم باستحقاقه وإعلام بدوامه .

### قصة صالح عليه السلام

وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ ، هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَ كُمْ فِيهَا فَاسْتَفِرُّوهُ ثُمَّ تَوَبُّوا إِلَيْهِ ، إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُجِيبٌ (٦١) قَالُوا يَا صَالِحُ قَدْ كُنْتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَذَا ، أَتَنْهَانَا أَنْ نَعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ (٦٢) قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُمْ عَلَىٰ بَيْتِهِ مِنْ رَبِّي وَآتَانِي مِنْهُ رَحْمَةً فَمَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُ ؟ فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيْرَ تَخْسِيرٍ (٦٣)

## تفسير المفردات

أعمرته الأرض واستعمرته إياها : إذا فوضت إليه عمارتها ، والريب، الظن والشك يقال رابى الشيء يربىه : إذا جعلك شاكاً ، وغير تخسير : أى غير إيقاع فى الخسران باستبدال الشرك بالتوحيد .

## المعنى الجملى

جاء هذا القصص فى بيان دعوة صالح لقومه ثمود وردم لها بعد احتجاجه عليهم ، وصالح هو الرسول الثانى من العرب ، ومساكن قبيلته ثمود - الحِجْر وهى بين الحجاز والشام وسيأتى ذكر قصصهم فى سورة الشعراء والنمل والقمر والحجر وغيرها ، وفى كل منها من الموعظة والعبرة ما لا يفتى عنه غيره .

## الايضاح

( وإلى ثمود أخاهم صالحاً قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره ) الكلام فى هذا الكلام فى نظيره السابق فى تبليغ هود عليهما السلام .

( هو أنشأكم من الأرض ) أى ابتداء خلقكم منها ، فهى المادة الأولى التى خلق منها آدم أبو البشر ، ثم خلقكم أنتم من سلالة من طين بالوسائط ، فإن النطفة التى تتحول إلى علقة ثم إلى مضغة ، ثم إلى هيكل عظمى يحيط به لحم - أصلها دم . والدم من الغذاء وهو إما من نبات الأرض ، وإما من اللحم الذى يرجع إلى النبات بعد طور أو أكثر . ( واستعمركم فيها ) أى جعلكم عمّاراً لها فقد كانوا زُرّاعاً وصُنّاعاً وبنائين كما جاء فى الآية الأخرى « وَكَانُوا يَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا آمِنِينَ » .

والخلاصة - إنه هو المنشئ لخلقكم والمد لكُم بأسباب العِمران والنعم فى الأرض فلا ينبغى أن تعبدوا فيها غيره ، فهو ذو الفضل عليكم ، وشكرانه واجب عليكم بإخلاص العبادة له وحده .

( فاستغفروهم ثم توبوا إليه ) أى فاسألوه أن يغفر لكم ماتقدم من ذنوبكم بإشراككم به سواه ، وبما اجترحت من الآثام ، ثم ارجعوا إليه بالتوبة كلما فرط منكم ذنب عسى أن يغفر لكم .

( إن ربي قريب مجيب ) أى قريب من عباده لا يخفى عليه استغفارهم ولا الباعث عليه ومجيب لدعاء من دعاه وسأله إذا كان مؤمنا مخلصا .

ونحو الآية ماتقدم فى سورة البقرة من قوله « وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ » .  
ثم ذكر ماردوا به عليه .

( قالوا يا صالح قد كنت فينا مرجوا قبل هذا ) أى قد كنت عندنا موضع الرجاء لمهام أمورنا لما لك من رجاحة عقل وأصالة رأى ، ولحسبك ونسبك قبل هذه الدعوة التى تطلب بها إلينا أن نبدل ديننا زعما منك أنه باطل ، فالآن قد انقطع رجاؤنا منك ثم ذكروا أسباب انقطاع رجائهم بقولهم :

١ — ( أتتهانا أن نعبد ما يعبد آباؤنا ) أى عجيب منك أن تهانا عن عبادة ما كان يعبد آباؤنا من قبلنا ، وقد سرنا نحن على نهجهم ولم يفكره أحد علينا ولم يستقبه ، فكيف تنكره ؟ .

٢ — ( وإنا لفي شك مما تدعونا إليه مريب ) أى وإنا فى شك من دعوتك إلى عبادته تعالى وحده دون أن نتوسل إليه بأحد من الشفعاء المقربين عنده ، ولا أن نعظم ما وضعه آباؤنا لهم من صور وتماثيل تُذَكِّرنا بهم ، فكل هذا يوجب الريب والتهمة وسوء الظن وعدم الطمأنينة إلى دعوتك .

فأجابهم صالح :

( قال يا قوم أرايتم إن كنت على بينة من ربي وآتاني رحمة منه ) أى أخبروني عن حالى معكم إن كنت على برهان وبصيرة من ربي مالك أمرى وآتاني من قبله رحمة خاصة من عنده جعلنى بها نبيا مرسلا إليكم .

(فمن ينصرنى من الله إن عصيته ؟) أى فمن يمتنعى من عذابه إذا أنا كتمت الرسالة ، أو كتمت ما يسوءكم من بطلان عبادة الأصنام والأوثان تقليداً لأبائكم - أى لا أحد يدفع ذلك عنى فى هذه الحال فلا أبالى إذاً بقطع رجائكم فى ولا بما أنتم فيه من شك وريب فى أمرى .

ثم ذكر مآل أمره إذا هو اتبعهم فقال :

(فما تزيدوننى غير تحسير) أى فما تزيدوننى باتقاء سوء ظنكم وارتيابكم غير إيقاعى فى الخسران بيبئثار ما عندكم على ما عند الله واشتراء رضاكم بسخطه تعالى .

وَيَأْقَوْمِ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةٌ فذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ  
وَلَا تَمْسُوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذْكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ (٦٤) فَمَقَرُّوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا  
فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ذَلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ (٦٥) فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا  
صَالِحًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ ، إِنَّ رَبَّكَ هُوَ  
الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ (٦٦) وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ  
جَاثِمِينَ (٦٧) كَأَنَّ لَيْمٍ يَغْمُونَ فِيهَا ، أَلَا إِنَّ تَمُودَ كَفَرُوا رَبَّهُمْ ، أَلَا  
بُعْدًا لَتَمُودَ (٦٨)

### تفسير المفردات

الآية : المعجزة الدالة على صدق نبوته ، وذروها : أتركوها ، وعمر الناقة بالسيف : قطع قوائمها به أو نحرها ، والتمتع : التلذذ بالمنافع ، والدار : البلد كما يقال ديار بكر : أى بلادهم ، وكذب فلانا حديثنا وكذبه الحديث : أى كذب عليه فيه ، والوعد : خبر موقوت كأن الواعد قال للموعد إننى أفى به فى وقته ، فإن وفى فقد صدق ولم يكذبه ، وأصل الأخذ : التناول باليد ، ثم استعمل فى الأشياء المعنوية كأخذ الميثاق

والعهد وفي الإهلاك ، والصيحة : الصوت الشديد والمراد بها هنا صيحة الصاعقة ،  
وجائئين : أى ساقطين على وجوههم مصعوقين لم ينتج منهم أحد ، وغني بالمكان :  
أقام فيه .

### المعنى الجملى

بعد أن ذكر أن قومه قالوا له إننا لنرى شك مما تدعوننا وسألوه الآية على ما دعاهم  
إليه - ذكر هنا أنه قال لهم إن آيته على رسالته هى الفاقة ، وأن من يمسه بسوء يصيبه  
عذاب اليم .

### الايضاح

( وياقوم هذه ناقة الله لكم آية ) أى يا قومى هذه ناقة ممتازة عن سائر الإبل  
بما ترون من أكلها وشربها وجميع شئونها ، قد جعلها الله لكم آية بينة منه تدل على  
صدقى وعلى إهلاككم إن أنتم خالفتم أمره فيها .  
( فذروها تأكل فى أرض الله ) أى فاتركوها تأكل مما فى الأرض من المراعى  
وليس عليكم مؤنتها .

( ولا تمسوها بسوء فىأخذكم عذاب قريب ) أى ولا يمسه أحد منكم بأذى  
فىأخذكم عذاب عاجل لايتأخر عن مسكم إياها بسوء إلا يسيرا .

ثم ذكر أنهم لم يستمعوا نصحه فقال :

( فمقرروها فقال تمتعوا فى داركم ثلاثة أيام ، ذلك وعد غير مكذوب ) أى فكذبوه  
فمقرروها فقال لهم صالح : استمتعوا بحياتكم فى دار الدنيا ثلاثة أيام ، وهذا الأجل الذى  
أجلتكم وعد من الله وعدكم حين انقضائه بالهلاك ونزول العذاب ، لم يكذبكم فيه من  
أعمالكم ذلك .

ثم ذكر وقوع ما أُوعِدوا به فقال :

( فلما جاء أمرنا نجينا صالحا والذين آمنوا معه برحمة منا ومن خزي يومئذ )

أى فلما جاء ثمود عذابنا نجينا صالحا والذين آمنوا معه برحة خاصة منا ، ونجيناهم من عذاب ذلك اليوم ونكاله باستئصالهم من الوجود ؛ وبما يتبعه من سوء الذكر والطرده من رحمة الله .

ثم بين عظيم قدرته على التنكيل بأمتالهم من المشركين فقال :  
( إن ربك هو القوى العزيز ) أى إن ربك أيها الرسول الذى فعل هذا بهم .  
قادر أن يفعل مثل ذلك بقومك إذا أصروا على الجحود ، إذ لا يعجزه شيء ، وهو الغالب على أمره .

ثم ذكر ما آل أمرهم وشديد عقابه بهم فقال :  
( وأخذ الذين ظلموا الصيحة فأصبحوا فى ديارهم جاثمين ) أى فأخذتهم صيحة الصاعقة التى نزلت بهم فأحدثت رجفة فى القلوب وزلزلة فى الأرض وصعقوا بها جميعا فانكبوا على وجوههم لم ينتج منهم أحد .  
( كأن لم يفنوا فيها إلا إن ثمود كفروا ربهم إلا بعدا لثمود ) أى كأنهم لسرعة زوالهم وعدم بقاء أحد منهم لم يقيموا فى ديارهم البتة ، وما سبب هذا إلا أن كفروا بأيات ربهم فحذوها ، إلا بعدا وهلاكاً لهم .

### بشارة الملائكة لإبراهيم وامرأته بإسحاق

وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُوا سَلَامًا ، قَالَ سَلَامٌ فَمَا لَبِثَ أَنْ جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ (٦٩) فَلَمَّا رَأَى أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً ، قَالُوا لَا تَخَفْ ، إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَى قَوْمِ لُوطٍ (٧٠) وَامْرَأَتَهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكْتُمْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ (٧١) قَالَتْ يَا وَيْلَتَا أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا؟

إِنَّ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ (٧٢) قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ ، رَحْمَةً اللَّهُ وَبَرَكَاتُهُ  
عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ ، إِنَّهُ حَمِيدٌ مَجِيدٌ (٧٣)

### تفسير المفردات

فألبث : أى ما أبطأ ، وحنيد : أى مشوى بالرضف وهى الحجارة المحمأة ،  
ولا تصل إليه : أى لا تمتد للتناول ، ونكره وأنكره : ضد عرفه ، وأوجس القلب فزعاً :  
أحسّ به ، ولوط : هو ذلك النبي الكريم ، وهو ابن أخى إبراهيم وأول من آمن به ،  
ويا ويلتنا : أصلها يا ويلى : وهى كلمة تقال حين يفجأ الإنسان أمرهم من بليّة أوفجيعه  
أوفضيحة على جهة التعجب منه أو الاستنكار له أو الشكوى منه ، والبعل : الزوج  
وجمه بعولة ، وأمر الله : قدرته وحكمته ، وحيد : أى تحمد أفعاله ، ومجيد : أى كثير  
الخير والإحسان .

### الايضاح

( ولقد جاءت رسلنا إبراهيم بالبشرى ) أى ولقد جاءت رسلنا من الملائكة ،  
واختلفت الرواية فيهم ، فعن عطاء إنهم جبريل وميكائيل وإسرافيل عليهم السلام ،  
وعن غيره إنهم جبريل وسبعة أملاك معه ، ومثل هذا لا يعلم إلا بتوقيف من الوحي  
ولم يثبت ، والبشرى : البشارة بالولد لقوله : « فَبَشِّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ » الآية وقوله  
فى الذاريات : « وَبَشِّرْهُ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ » .

( قالوا سلاما ) أى قالوا : نسلم عليك سلاما .

( قال سلام ) أى قال : عليكم سلام .

( فما لبث أن جاء بعجل حنيد ) أى فما أبطأ أن جاءهم بعجل مشوى على الحجارة  
المحمأة ( وقد اهتدى البشرى إلى شئى اللحم من صيد وغيره على الحجارة المحمأة بحر الشمس  
قدما قبل الاهتداء إلى إنضاجه بالنار ) .

وجاء في سورة الذاريات : « فَرَاغَ إِلَىٰ أَهْلِهِ فَجَاءَ بِجِلِّ سَمِينٍ . فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ » وفي هذا دليل على أنه كان مشويًا معدا لمن يحيى من الضيوف ، وربما كان قد شوى عند وصولهم بلا إبطاء ولا تريت .

( فلما رأى أيديهم لاتصل إليه نكرهم وأوجس منهم خيفة ) أى فلما رأى إبراهيم أيديهم لاتمتد إلى الطعام الذى قدم إليهم نكر ذلك منهم ووجده على غير ما يمهده من الضيوف ( فالعادة قد جرت أن الضيف إذا لم يطعم مما قدم إليه ظن أنه لم يحيى بخير وأنه يحدث نفسه بشر) وأحس في نفسه خوفا وفزعا ، حين شعر أنهم ليسوا بشرا وربما كانوا من ملائكة العذاب .

( قالوا لانخف إنا أرسلنا إلى قوم لوط ) أى قالوا له حين علموا ما يساور قلبه من الخوف : لانخف ، فنحن لانريد بك سوءا ، وإنما أرسلنا إلى قوم لوط لإهلاكهم ، وكانت ديارهم قريبة من دياره ، وجاء في سورة الحجر أنه صارحهم بالخوف فطمأنوه وبشروه بغلام عليم ، وكذا في سورة الذاريات .

( وامراته قائمة فضحكت ) أى وكانت امرأة إبراهيم واقفة للخدمة فضحكت سرورا بالأمن من الخوف ، أو تقرب عذاب قوم لوط لكراحتها لسيرتهم الخبيثة .

( فبشرناها بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب ) أى فبشرناها بالتبع لبشارة إبراهيم بإسحاق ، ومن بعد إسحاق يعقوب أى إنه سيكون لإسحاق ولد أيضا كما قال تعالى : « وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ » :

( قالت يا ويلتا ألد وأنا عجوز وهذا بعلى شيخا ؟ إن هذا لشيء عجيب ) أى قالت سارة لما بشرت بإسحاق : كيف ألد وقد بلغت السن التى لا يلد من كان قد بلغت من الرجال والنساء ، وهذا زوجى شيخا كبيرا لا يولد لمثله ، إن هذا الذى بشرتمونا به لشيء عجيب مخالف لسنن الله التى سلكها في عباده .

وقد جاء في سفر التكوين ( إن إبراهيم كان عمره يومئذ مائة سنة ، وإن وزوجه

سارة كانت ابنة تسعين سنة) ومثلها لا يلد ، بل الغالب أن ينقطع حيض المرأة في سن الخمسين فيبطل استعدادها للحمل والولادة ، على أنها كانت عقياً كما في سورة الذاريات .  
وربما كانت زوجه سارة علمت من حال زوجها بعد ولادة هاجر لابنه إسماعيل بمدة قليلة أو كثيرة أنه أصبح غير مستعد لمباشرة النساء ، أو كانت تعتقد كما يعتقد أن مثله في تلك السن لا يولد له .

(قالوا أتعجبين من أمر الله) أى قالوا لها : لا ينبغي لك أن تعجبي من شيء يصدر عن أمر الله الذى لا يعجزه شيء . كما قال : « إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ » .

والله الخالق للسنن ، والواضع لنظام الأسباب هو الذى أراد أن يستثنى منها واقعة بعينها يحلها من آياته لحكمة من حكمه أرادها لبعض عياده .

(رحمة الله وبركاته عليكم أهل البيت) أى رحمة الله وبركاته الكثيرة عليكم يا أهل بيت النبوة تتوارث فى نسلكم إلى يوم القيامة ، وماتلك بأول آية لإبراهيم فقد نجاه من نار قومه الظالمين ، وآواه إلى الأرض التى بارك فيها للعالمين .  
(إنه حميد مجيد) أى إنه جل ثناؤه مستحق لجميع الحمد ، حقيق بالخير والإحسان .

فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ وَجَاءَتْهُ الْبُشْرَى يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطِ (٧٤) إِنَّ إِبْرَاهِيمَ حَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ (٧٥) يَا إِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ آتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ (٧٦)

### تفسير المفردات

الروع : (بالفتح) الخوف والفرع : (وبالضم) النفس ، والحليم : الذى لا يحب المعالجة بعقاب ، والأواه : الكثير التأوه مما يسوء ويؤلم ، والمنيب الذى يرجع إلى الله فى كل أمر ، وغير مردود : أى غير مدفوع لا يجادل ولا يشفاعة .

## المعنى الجملى

بعد أن ذكر عز اسمه بعض ما جرى بين إبراهيم والملائكة ، وصل به بعضاً آخر كالقصة له .

## الإيضاح

( فلما ذهب عن إبراهيم الروح وجاءته البشرى يجادلنا في قوم لوط ) أى فلما سُرى عن إبراهيم وانكشف له ما أوجس منه الخيفة ، إذ علم أن هؤلاء الرسل من ملائكة العذاب ، وجاءته البشرى بالولد واتصال النسل أخذ يجادل رسلنا فيما أرسلناهم به من عقاب قوم لوط ( وجعلت مجادلتهم مجادلة لله لأنها مجادلة في تنفيذ أمره ) وهذه المجادلة قد فصلت في سورة العنكبوت فجاء فيها :

« وَمَا جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُوا إِنَّا مُهْلِكُوا أَهْلَ هَذِهِ الْقَرْيَةِ إِنَّا أَهْلُهَا كَانُوا ظَالِمِينَ . قَالَ إِنِّي فِيهَا لُوطًا قَالُوا مَنَ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا لَنَنْجِيَنَّهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ . »

كما جاءت هذه المجادلة في الفصل الثامن عشر من سفر التكوين من التوراة ففيه : ( إن الرب ظهر لإبراهيم وهو جالس في باب الخيمة ، فظهر له ثلاثة رجال فاستضافهم وأتى لهم بمجلى وخبز ملى فأكلوا وبشروه بالولد ، فسمعت امرأته سارة فضحكت وتمجبت لكبرها وانقطاع عادة النساء عنها ، فقال الرب لإبراهيم لماذا ضحكت سارة ، هل يستحيل على الرب شيء ؟ ... وانصرف الرجال ( أى الملائكة ) من هناك وذهبوا نحو سدوم ( قرية قوم لوط ) وإبراهيم لم يزل قائماً أمام الرب فتقدم إبراهيم وقال : أقتلك البار مع الأثيم ؟ عسى أن يكون هناك خسون باراً في المدينة ، أقتلك المكان ولا تصفح عنه من أجل الخسنيين باراً الذين فيه ؟ فقال الرب إن وجدت في سدوم خسين باراً فإني أصفح عن المكان كله من أجلهم ، ثم كلمه إبراهيم مثل هذا في خمسة وأربعين ثم في أربعين ثم في ثلاثين ثم في عشرين ثم في عشرة ، والرب يعده في كل من هذه

الأعداد بأنه من أجلهم لايهلك القوم ... وذهب الرب عند ما فرغ من الكلام مع إبراهيم إلى مكانه (هـ).

(إن إبراهيم لحليم أواه منيب) أى إنه جادل الملائكة فى عذاب قوم لوط ، لأنه كان حليماً لا يعجل بالانتقام من المسيء ، كثير التأوّه مما يسوء الناس ويؤلمهم ، يرجع إلى الله فى كل أموره .

(يا إبراهيم أعرض عن هذا إنه قد جاء أمر ربك ، وإنهم آتيتهم عذاب غير مردود) أى يا إبراهيم أعرض عن الجدال فى أمر قوم لوط والاسترحام لهم ، إنه قد نفذ فيهم القضاء وحقّت عليهم الكلمة بالهلاك وحلول البأس الذى لا يرد عن القوم المجرمين ، وإنهم آتيتهم عذاب لاسبيل إلى دفعه ورده بجدل ولاشفاعة ولاغيرها .

وفى هذه الآية عبرة لمن يتخذ من الله أندادا من أوليائه ، ويزعم أنهم يتصرفون فى الكون كما يريدون ولا يردّ لهم طلب كما قال : « لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ » وفيها أكبر رد عليهم فيما يتخرون به ، فهذا جدّ الأنبياء وأفضلهم بعد محمد صلى الله عليه وسلم وهو إبراهيم نجاه الله عن التعرض لما قضى به فأراد .

### قصة لوط عليه السلام

وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ (٧٧) وَجَاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِنْ قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ ، قَالَ يَا قَوْمِ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ ، فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تَخْزَوْا فِي ضَيْفِي ، أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ (٧٨) قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتَ

مَالَنَا فِي بِنَاتِكَ مِنْ حَقِّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ (٧٩) قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ (٨٠)

### تفسير المفردات

سوء بهم : أى وقع فيما ساءه وغمه بمجيئهم ، الذرع والذراع : منتهى الطاقة ، يقال مالى به ذرع ولاذراع : أى مالى به طاقة ، ويقال ضقت بالأمر ذرعا إذا صعب عليك احتمالك ، والعصيب : الشديد الأذى ، ويقال هُرِعَ وأهْرِعَ (بالبناء للمفعول) : إذا حُجِلَ على الإسراع ، وقال الكسائى لا يكون الإهرع إلا إسراعا مع رِغْدَةٍ من برد أو غضب أو حُمَى أو شهوة ، ولا تخزون : أى لا تتحجلوني ، والضيف يطلق على الواحد والجمع ، والرشيد : ذو الرشد والعقل ، لو أن لى بكم قوة : أى على الدفع بنفسى ، أو آوى إلى ركن شديد من أرباب العصبيات القوية الذين يحمون اللاجئين ويحجرون المستجبرين .

### الإيضاح

فى سفر التكوين : إن لوطا عليه السلام ابن هرون أخى إبراهيم صلى الله عليه وسلم وأنه هاجر معه من مسقط رأسهما ( أور الكلدانيين ) فى العراق إلى أرض الكنعانيين وسكن إبراهيم فى أرض كنعان ، ولوط فى سدوم بالأزْدُن ، ويظن بعض الباحثين أن بحيرة لوط غمر موضعها بعد الخسف ، ويقال إن الباحثين فى المصر الحاضر عثروا على آثارها .

( ولما جاءت رسلنا لوطا سوء بهم وضاق بهم ذرعا وقال هذا يوم عصيب ) أى ولما جاءت ملائكتنا لوطا ساءه بمجيئهم ، وعجز عن احتمال ضيافتهم ، لما كان يتوقعه من اعتداء قومه عليهم كما حدثهم ( وقد روى أنهم جاءوه بشكل غلمان حسان الوجوه ) وقال هذا يوم شديد شره ، عظيم بلاؤه .

( وجاءه قومه يهرعون إليه ) أى وجاء لوطا قومه يهرولون كأن سائقا يسوقهم  
 بما بهم من طلب الفاحشة .

( ومن قبل كانوا يعملون السيئات ) أى ومن قبل هذا الحجب كانوا يعملون  
 السيئات الكثيرة التى أفضعها ما أنكرته الفطر البشرية والشرائع الإلهية والوضعية ،  
 وهو إتيان الرجال شهوة من دون النساء ومجاهرتهم بها فى أنديتهم كما حكى الله عنهم  
 بقوله : « أَتَيْنَكُم لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ الْمُنْكَرَ »  
 ( قال يا قوم هؤلاء بناتى هن أطهر لكم ) فنزوجهن ، أراد بيناتى بنات قومه  
 لأن النبى فى قومه كالوالد فى عشيرته كما قال ابن عباس ، ويدخل فيهن نساؤهم المدخول  
 بهن وغيرهن من المعدّات للزواج ، ومراده أن الاستمتاع بهن بالزواج أطهر من التلوث  
 برجس اللواط ، فإنه يكبيح جهام الشهوة مع الأمن من الفساد .

( فاتقوا الله ولا تحزون فى ضيفى ) أى فاحشوا الله واحذروا عقابه فى إتيانكم  
 الفاحشة التى تطلبونها ؛ ولا تذلونى وتمتهنوا بفضيحتى فى ضيوفى ؛ فإن إهانة الضيوف  
 إهانة للمضيف وفضيحة لهم .

( أليس منكم رجل رشيد ) أى أليس منكم رجل ذو رشد وحكمة ينهى من أرادوا  
 ركوب الفاحشة من ضيوفى ، فيحول بينهم وبين ما يريدون .

( قالوا لقد علمت ما لنا فى بناتك من حق ) أى لقد علمت من قبل أنه ليس لنا -  
 فى بناتك من رغبة فى تزوجهن فتصرفنا بهن عرضنا عليهن ما نريد ، وقد يكون المعنى -  
 لقد علمت الذى لنا فى نساءنا اللواتى تسميهن بناتك من حق الاستمتاع ومانحن عليه  
 .هن ، فلا ينبغي عرضك إياهن علينا لتصرفنا عما نريده .

( وإنا لتعلم ما نريد ) أى وإنا لتعرف حق المعرفة ما نريد من الاستمتاع  
 بالذكران ، وإنا لتؤثر عليه شيئا .

والخلاصة - إنهم أجمعوا أمرهم على فعل ما يريدون .

( قال لو أن لي بكم قوة أو آوى إلى ركن شديد ) أى قال لوط لقومه حين أبوا إلا المضى لما قد جاءوا له من طلب الفاحشة وأيس من أن يستجيبوا له إلى شيء مما عرض عليهم : لو أن لي بكم قوة بأنصار تنصرني عليكم وأعوان تعينني ، أو أنضم إلى عشيرة تجيرني منكم لحت بينكم وبين ما جئتم تريدونه مني في أضيافي .

قَالُوا يَا لَوُطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ فَأَسْرَبَ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلَّا أَمْرًا تَكُ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ (٨١) فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَلَىٰهَا سَافِلِيهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَابًا مِنْ سَجِيلٍ مَنضُودٍ (٨٢) مُسَوِّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ ، وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ (٨٣)

### تفسير المفردات

السرى : ( بالضم ) والإسراء فى الليل : كالسير فى النهار ، والقطع من الليل : الطائفة منه ، والسجيل : الطين المتحجر كما جاء فى الآية الأخرى « حجارة من طين » . وقال الراغب : هو حجر وطين مختلط أصله فارسى فعرَّب ، ومنضود : أى وضع بعضه على بعض وأعد لذهابهم ، ومسومة : أى لها سومة ( بالضم ) أو علامة خاصة فى علم ربك .

### المعنى الجملى

بعد أن بين عز اسمه ما يدل على أن لوطا كان قلقا على أضيافه مما يوجب الفضيحة لهم ، وذلك قوله : « لو أن لي بكم قوة أو آوى إلى ركن » ذكر هنا أن الرسل بشروه بأن قومه لن يصلوا إلى ما هموا به ، وأن الله مهلكهم ومنجيهم مع أهله من العذاب .

## الإيضاح

(قالوا يا لوط إنا رسل ربك) أى قالت الملائكة للوط بعد أن رأوا شديد الكرب الذى لحقه بسببهم وتمنيه أن يجد قوة تدفعهم عن أضيافه: إنا رسل ربك أرسلنا لإهلاككم وتنجيتك من شرهم .

(لن يصلوا إليك) ولا إلى ضيفك بمكروه، فهوّن عليك الأمر، وحينئذ طمس الله أعينهم فلم يعودوا يبصرون لوطا ولا من معه كما جاء فى سورة القمر: « وَلا تَدْرِي رَأَوْدُهُ عَنْ ضَيْفِهِ فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ » فانقلبوا عميا يتخبطون لا يعرفون الطريق ولا يهتدون إلى بيوتهم وصاروا يقولون: النجاء النجاء فإن فى بيت لوط قوما سحرة . (فأسر بأهلك بقطع من الليل) أى فأخرج من هذه القرى أنت وأهلك ببقية من الليل تكفى لتجاوز حدودها، وجاء فى سورة الذاريات: « فَأَخْرَجْنَا مَنْ كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ . فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ » .

(ولا يلتفت منكم أحد) أى ولا ينظر أحد إلى ما وراءه ليجدوا فى السير أولئلا يروا ما ينزل بقومهم من العذاب فيرققوا لهم ، وجاء فى سورة الحجر: « وَامْضُوا حَيْثُ تُؤْمَرُونَ » .

(إلا امرأتك) فقد كان ضلعا مع القوم وكانت كافرة خائنة .

(إنه مصيها ما أصابهم) أى إنه مصيها ذلك العذاب الذى أصابهم ومقتضى عليها بذلك ، فهو واقع لا بد منه .  
ثم علل الإسراء ببقية من الليل فقال :

(إن موعدهم الصبح) أى موعد عذابهم الصبح ابتداء من طلوع الفجر إلى الشروق كما جاء فى سورة الحجر « فَأَخَذْنَاهُمُ الصَّيْحَةَ مُشْرِقِينَ » .  
ثم أكد ما سبق فأجاب عن استعجال لوط لهلاكهم فقال :

(أليس الصبح بقريب) أى أليس موعد الصبح بموعده قريب لم يبق له إلا ليلة واحدة فانج فيها بأهلك .

وحكمة تخصيص هذا الوقت أنهم يكونون مجتمعين في مساكنهم فلا يُفَلتُ منهم أحد .  
( فلما جاء أمرنا جعلنا عاليها سافلها ) أى فلما جاء أمرنا بالعذاب وقضاؤنا فيهم  
بالمهلك قلبنا قراها كلها وخسفنا بها الأرض .

وقد جرت سنة الله أنه إذا أراد خسف أرض في جهة ما أحدث تحتها فراغا يتفاعل  
الأنجزة التي في جوفها فيندك الجزء الأعلى وينهدم ويفور إلى أسفل إماموديا إن كان  
الفراغ بقدر ما انخسف من الأرض وإما مائلا إلى جانب من الجوانب إن كان  
الفراغ تحته أوسع ، وفي بعض هذه الحالات يكون عاليها سافلها ؛ ويرجع بعض علماء  
طبقات الأرض ( الجيولوجيا ) أن قرى قوم لوط خُفِّ بها تحت الماء المعروف ببحيرة  
لوط أو بحر لوط ، وقد عثر الباحثون على بعض آثارها من عهد قريب .

وقد روى المفسرون في خسفها من الخرافات ما لم يثبتته نقل ولا يقبله عقل ، فقالوا  
إن جبريل عليه السلام قلعها من تخوم الأرض بجناحه وصعد بها إلى عنان السماء حتى  
سمع أهل السماء أصوات الكلاب والدجاج ونهيق الخير ، ثم قلبها قلبا مستويا فجعل  
عاليها سافلها ، مع أن المشاهدة في هذا العصر أثبتت أن الطائرات المطاردة التي تتلاقى  
في الجو تصل فقط إلى حيث يخف ضغط الهواء وتستحيل الحياة حينئذ ، ومن ثم يضعون  
فيها من أو كسجين الهواء ما يكفي استنشاقه وتنفسه للحياة في طبقات الجو العليا  
ثم يصعدون فيها ؛ وقد أشار الكتاب الكريم إلى ما يكون للتصعيد في جو السماء  
من التأثير في ضيق الصدر وعسر التنفس بقوله : « فَمَنْ يُرِدِ اللهُ أَنْ يَهْدِيَهُ  
يَسِّرْهُ وَصَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِدِ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا  
يَصْعَدُ فِي السَّمَاءِ » .

( وأمطرنا عليها حجارة من سجيل منضود . مسومة عند ربك ) أى وأمطرنا  
عليهم قبل القلب أو في أثناءه حجارة من سجيل : أى من طين متحجر كما جاء  
في سورة الذاريات : « لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ طِينٍ » ومثل هذا المطر يحدث

عادة بإرسال الله تعالى ريحا شديدة تحمل بعض الأحجار من المستنقعات أو الأنهار فتلقبها حيث يشاء الله .

وهذا السجيل قد نضد وتراكب بعضه في أثر بعض بحيث يقع طائفة بعد طائفة ، وقد وُضِعَ على تلك الأحجار سُومَةٌ : أى علامة خاصة فى علم ربك بحيث لاتصيب غير أهلها .

وقد يكون المعنى : إنه سخرها عليهم وحكمها فى إهلاكهم بحيث لا يمنعها شيء ، من قولهم : سوّمت فلانا فى الأمر إذا حكمته فيه وخلقته وما يريد ، لاثنتى له يد فى تصرفه .

ويرى بعض المفسرين أن التسويم كان حسيا بخطوط فى ألوانها أو بأمثال الخواتيم عليها أو بأسماء أهلها ، وكل ذلك من أمور الغيب التى لاتثبت إلا بسلطان ونص من خاتم الرسل ، وأنى هو ؟ .

(وما هى من الظالمين ببعيد) أى وما هذه القرى التى حل بها العذاب بمكان بعيد عنكم أيها المشركون من أهل مكة الظالمون لأنفسهم بتكذيبك والمهارة فيما تنذرهم به ، بل هى قريبة منكم على طريقكم فى رحلة الصيف إلى الشام كما قال فى سورة الصافات : « وَإِنَّكُمْ لَتَمَرُّونَ عَلَيْهِمْ مُّصْبِحِينَ وَبِاللَّيْلِ أَفْلَا تَعْمَلُونَ » أى وإنكم لتمرّون على آثارهم ومنازلهم فى أسفاركم وقت النهار وبالليل ، أفلا تعقبون بما حل بهم .

وفى هذا عبرة للظالمين فى كل زمان وإن اختلف العذاب باختلاف الأحوال وأنواع الظلم كثرة وقلة ومقدار أثره فى الأمة من إفساد عام أو خاص .

### قصة شعيب عليه السلام

وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهِ غَيْرُهُ وَلَا تَنْقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ ، إِنَّى أَرَاكُمْ بِمُخَيَّرٍ وَإِنى أَخَافُ

عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ (٨٤) وَيَأْقُومِ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ  
بِالْقِسْطِ ، وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ ، وَلَا تَعْمُوا فِي الْأَرْضِ  
مُفْسِدِينَ (٨٥) بَقِيَّةُ اللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُّؤْمِنِينَ ، وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ  
بِحَفِيفٍ (٨٦)

### المعنى الجملى

تقدم ذكر قصة شعيب في سورة الأعراف ، وذكرت هنا مرة أخرى ، وقد جاء  
في كل موضع منهما من العظات والأحكام والحكم ما ليس في الآخرة مع الإحكام  
في السبك وحسن الرِّصْف ، والسلامة من التعارض والاختلاف والتفاوت .

### الايضاح

( و إلى مدين أخاهم شعيباً ) أى وأرسلنا إلى مدين أخاهم شعيباً .

( قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره ) أى فلما أتاهم قال يا قوم اعبدوا الله  
وحده ولا تعبدوا معه غيره ، فما لكم من إله إلا هو .

وقد جرت سنة الأنبياء أن يبدؤوا بالدعوة إلى التوحيد، لأنه جذر شجرة الإيمان،  
ثم يتبعونه فالأهم بالأهم فيما يرون لدى أقوامهم ، ومن ثم نهي بالنهي عن نقص الكيل  
والميزان ، لأن أهل مدين اعتادوا ذلك فقال :

( ولا تنقصوا المكيال والميزان ) أى ولا تنقصوا الناس حقوقهم في مكيالكم وميزانكم  
كما هي عادتكم ، وقد جاء مثل هذا النهي في قوله :

« وَبَلِّغِ لِلْمُطْفَفِينَ . الَّذِينَ إِذَا أَكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ . وَإِذَا كَالُواهُمْ  
أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ » أى ينقصون .

( إني أراكم بخير ) أى إني أراكم بثروة وسعة في الرزق تغنيكم عن الدناءة في بخس  
حقوق الناس وأكل أموالهم بالباطل بما تنقصون لهم من المبيع في مكيل أو موزون

وكانوا تجارا مطقفين إذا اکتالوا على الناس يستوفون وإذا كالوهم أو وزنوهم  
ينقصون المكيال والميزان .

إلا أن في هذا كفرانا لنعمة الله عليكم ، إذ كان يجب عليكم شكرانها بالزيادة على  
سبيل الصدقة والإحسان .

( وإني أخاف عليكم عذاب يوم محيط ) أى وإنى أخشى عليكم يوما محيط بكم  
عذابه إذا أنتم أصررتم على شرككم بالله بعبادة غيره ، وكفرتم بنعمه بنقص  
المكيال والميزان .

وهذا العذاب إما فى الدنيا بعذاب الاستئصال ، وإما فى يوم القيامة .

( ويقوم أوفوا المكيال والميزان بالقسط ) أى ويقوم أتموهم بالعدل بلا زيادة  
ولانقصان .

وقد أمرهم بالواجب بعد أن نهام عن ضده لتأكيده وللتنبية إلى كون عدم التعمد  
للنقص لا يكفي لتحرى الحق ، بل يجب معه تحرى الإيفاء بالعدل والسوية من غير  
زيادة ولانقص ، وإن كان التيقن من ذلك لا يكون إلا بزيادة طفيفة ، وتعمدها  
فى الكيل والوزن للناس سخاء وفضيلة يمدح فاعلها عليها ، وفى الاكتيال أو الوزن  
عليهم طمع فهو رذيلة مذمومة .

( ولا تبخسوا الناس أشياءهم ) البخس : النقص فى كل الأشياء ، يقال بخسه ماله  
وبخسه علمه وفضله ، أى لا تظلموا الناس أشياءهم ، وذلك يشمل مال للأفراد  
ومال للجماعات من مكيل وموزون ومعدود ومحدود بحقوق مادية أو معنوية .

( ولا تهثوا فى الأرض مفسدين ) الإفساد تعطيل يشمل مصالح الدنيا وأمور الدين  
وأخلاق النفس وصفاتها ، وكل ذلك فاش فى عصرنا أى لا تفسدوا فى الأرض وأنتم  
تتعمدون الإفساد ، وإنما اشترط فى النهى تعمد الإفساد ، لأن بعض ما هو إفساد  
فى الظاهر قد يراد به الإصلاح أو دفع أخف الضررين كما يقع فى الحرب من قطع

الأشجار أو فتح سدود الأنهار أو إحراق بعض الغابات ، وكما فعل الخضر عليه السلام للسفينة التي كانت لمساكين يعملون في البحر ، لأجل منع الملك الظالم الذي وراءهم من أخذها إذا أعجبته .

وهذا نهى عام يشمل غير ماسبق ، كقطع الطرق ، وتهديد الأمن ، وقطع الشجر ، وقتل الحيوان ، ونحو ذلك .

( بقية الله خير لكم إن كنتم مؤمنين ) أى ما يبقى لكم بعد إيفاء السكيل والميزان من الربح الحلال خير لكم مما تأخذونه بالتطيق ونحوه من الحرام ، إن كنتم مؤمنين به حق الإيمان ، فالإيمان يطهر النفس من رذيلة الطمع ويحلها بفضيلة السخاء والكرم . ( وما أنا عليكم بحفيظ ) أى وما أنا بالذى أستطيع أن أحفظكم من القباح ، وإنما أنا ناصح مبلغ ، وقد أعذرت إذ أنذرت ، ولم آل جهداً فى ذلك .

قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصْلَاتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ تَتْرُكَ مَا يَعْْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ ؟ إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ (٨٧) قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُمْ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّ وَرَزَقْنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَافِكُمْ إِلَىٰ مَا أَنهَاكُمْ عَنْهُ ، إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ ، عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ (٨٨) وَيَا قَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ ، وَمَا قَوْمٌ لَوْطٍ مِنْكُمْ بِيَعِيدٍ (٨٩) وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ (٩٠)

## تفسير المفردات

الحليم : ذو الأناة والتروى الذى لا يتعجل بأمر قبل الثقة من فائدته ، والرشيد : الذى لا يأمر إلا بما استبان له من الخير والرشد ، والخالفة : أن يأخذ كل واحد طريقا غير طريق الآخر فى قوله أو فعله أو حاله ، يقال خالفنى فلان إلى كذا إذا قصده وأنت مولى عنه ، وخالفنى عنه إذا ولى عنه وأنت قاصد له ، وأتاب إلى الله : رجع إليه ، وجرم الذنب أو المال : كسبه ، ورحيم : عظيم الرحمة للمستغفرين ، ودود : كثير اللطف والإحسان إليهم .

## المعنى الجملى

بعد أن ذكر أمر شعيب لقومه بعبادة الله وحده وعدم النقص فى الكيل والميزان ذكر هنا ردم على كلا الأمرين ، فردوا على الأول بأنهم إنما ساروا على منهج آبائهم وأسلافهم فى التدين والإيمان ، وردوا على الثانى بأنهم أحرار فى أموالهم يتصرفون فيها بما يجلب لهم المصلحة فيها .

ثم أعاد النصح لهم بأنه لا يريد لهم إلا الإصلاح ، وأنه يخشى أن يصيبهم ما أصاب الأمم فيهم كقوم نوح أو قوم هود وما الأحداث التى اجتاحت قوم لوط بعيدة عنكم ، فعليكم أن تتوبوا إلى ربكم ، عله أن يرحمكم ، فهو واسع الرحمة ، محب لمن تاب وأتاب إليه .

## الإيضاح

( قالوا يا شعيب أصلاتك تأمرك أن نترك ما يعبد آباؤنا ؟ ) أى أصلاتك التى هى من نتاج الوسوسة وفعل المجانين تأمرك بأن نترك ما سار عليه آباؤنا جيلا إثر جيل من عبادة الأوثان والأصنام ، وإنما جملوه مأمورا مع أن الصادر عنه إنما هو الأمر بعبادة الله وغيرها من الشرائع ، لأنه عليه السلام لم يكن يأمرهم من تلقاء نفسه بل بوحى من ربه ويبلغهم أنه مأمور بذلك ، وإسناد الأمر إلى الصلاة دون غيرها من العبادات لأنه كان

كثير الصلاة معروفاً بذلك حتى إنهم كانوا إذا رأوه يصلّى تغامزوا وتضاحكوا ، فكانت هي من بين الشعائر ضحكة لهم .

( أو أن نفع في أموالنا مانشاء ) أى أو أن نترك فعلنا مانشاء في أموالنا من التطفيف وغيره من التنمية والاستغلال والتصرف في الكسب بما نستطيع من الخلق والاحتيال والخديعة ، فما ذلك إلا حجر على حرّيتنا وتحكم في إرادتنا وذكائنا .  
والخلاصة — إنهم ردوا عليه الناحيتين الدينية والدينية بما رأوا من شبه مزيّفة ، وحجج آفنة .

ثم أتبعوا ذلك بما يدل على السخرية والهزء به فقالوا :

( إنك لأنت الحليم الرشيد ) أى أنت ذو الجهالة والسفاهة في الرأى ، والغواية في الفعل بهوس الصلاة ، لكنهم عكسوا القضية تهكماً واستهزاء كما يقال للبخيل : لوراك حاتم لاقتدى بك في سخائك .

( قال يا قوم أرأيتم إن كنت على بينة من ربي ) أى قال يا قوم أخبروني عن شأنى وشأنكم إن كنت على حجة واضحة من ربي ومالك أمرى فيما دعوتكم إليه وما أمرتكم به ونهيتكم عنه فكان وحياً منه لأرأيا منى .

( ورزقى منه رزقا حسنا ) في كثرته وفي صفته وقد كان ذلك بالخلال بلا تطفيف مكيال ولا ميزان ولا بنس لحق أحد من الناس ، فما أقوله لكم صادر عن تجربة في الكسب الطيب ومافيه من خير وبركة ، لاعتن آراء نظرية ممن ليست له خبرة — فماذا أقول غير الذى قلت عن وحى من ربي وعن تجربة في مالى هل يسعى بعد هذا التقصير في التبليغ والسكمان لأوامر الله .

( وما أريد أن أخالفكم إلى ماأنهاكم عنه ) أى وما أريد بنهي إياكم عما أنهاكم عنه من البخس والتطفيف أن أقصده بعد ما وليتم عنه ، فأستبدّ به دونكم مؤثراً لنفسى عليكم ، بل أنا مستمسك به قبلكم .

( إن أريد إلا الإصلاح ما استطعت ) أى ما أريد إلا الإصلاح بالنصيحة والموعظة

ما استطعت إلى ذلك سبيلاً لآلؤ فيها جهداً ، وليس ذلك عن هوى ولا منفعة خاصة ،  
ولولا ذلك ما فعلته .

وفي ذلك إيماء إلى إثبات عقله ورشده وحكمته ، وإبطال لتهمهم ، واستهزائهم  
بتلقيهم إياه ( بالحلِيم الرشيد ) .

( وما توفيقى إلا بالله ) التوفيق الفوز والفلاح في كل عمل صالح وسعى حسن ،  
وحصول ذلك يتوقف على كسب العامل وطلبه من الطريق الموصل إليه ، وتيسير  
الأسباب التي يسهل معها الحصول عليه ، وذلك إنما يكون من الله وحده ، أى  
وما توفيقى لإصابة الحق والصواب في كل ما أتى وما أذر إلا بهداية الله تعالى ومعاونته .  
( عليه توكلت وإليه أنيب ) أى عليه توكلت في أداء ما كلفنى من تبليغكم  
ما أرسلت به لاعلى حولى وقوتى ، وإليه أرجع في كل ما أهنى في الدنيا ، وهو الذى  
يجازينى شلى أعمالى فى الآخرة .

والخلاصة — إنه لا يرجو منهم أجراً ولا يخشى منهم صبراً .

( ويا قوم لا يجرمنكم شقاقى أن يصببكم مثل ما أصاب قوم نوح أو قوم هود أو قوم  
صالح ) أى لا تحملنكم عداوتى وبغضى وفراق الدين الذى أنا عليه على الإصرار على  
ما أتم عليه من الكفر بالله وعبادة الأوثان وبخس الناس فى المكيال والميزان ،  
فيصيبكم مثل ما أصاب قوم نوح من الغرق أو قوم هود من العذاب أو قوم صالح  
من الرجفة .

( وما قوم لوط منكم ببعيد ) زمانا ولا مكانا أى إن لم تعتبروا بمن ذكرنا قبلُ لقدم  
عهد أو بعد مكان فاعتبروا بهؤلاء ، فإنهم بمرأى منكم ومسمع .

وقد يكون المعنى — ليسوا ببعيد منكم فى الكفر والمساوى فاحذروا أن يحل بكم  
مثل ما حل بهم من العذاب .

( واستغفروا ربكم ثم توبوا إليه ) أى واطلبوا من ربكم المغفرة مما أتم عليه من  
عبادة الأوثان وبخس الناس حقوقهم فى المكيال والميزان ، ثم ارجعوا إلى طاعته  
والإلتفاء إلى أمره ونهيه .

(إن ربي رحيم ودود) أى إن ربي رحيم بمن تاب وأناب إليه أن يعذبه بعد التوبة ، كثير الود والمحبة ، فيحب من يتوب ويرجع إليه .  
وفى الآية إرشاد إلى أن الندم على فعل الفساد والظلم بالتوبة واستغفار الرب تعالى من أسباب خير الدنيا وخير الآخرة .

قَالُوا يَا شُعَيْبُ مَا نَفَقَهُ كَثِيرًا مِمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفًا ،  
وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ وَمَا أَنتَ عَلَيْنَا بِمُرِيذٍ (٩١) قَالَ يَا قَوْمِ أَرَهْطِي  
أَعَزُّ عَلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ ؟ وَاتَّخَذْتُمُوهُ وَرَاءَكُمْ ظَهْرِيًّا إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ  
مُحِيطٌ (٩٢) وَيَا قَوْمِ ائْتَمَلُوا عَلَى مَكَاتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ سَوْفَ تَعْلَمُونَ  
مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ ، وَمَنْ هُوَ كَاذِبٌ وَارْتَقِبُوا إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ (٩٣)  
وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَأَخَذَتِ الَّذِينَ  
ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ (٩٤) كَذَانٌ لَمْ يَنْوُوا فِيهَا إِلَّا  
بُعْدًا لِمَدِينٍ كَمَا بَعَدَتْ نَمُودٌ (٩٥)

### تفسير المفردات

الفقة : الفهم الدقيق المؤثر في النفس الباعث على العمل ، والرهط : الجماعة من  
الثلاثة إلى السبعة أو العشرة ، لرحمناك : لقتلتناك بالرمي بالحجارة ، بعزير : أى ذى عزة  
ومنة ، واتخذ ظهرياً (بالكسر والتشديد) أى جعله نسيماً نسياً لا يذكر كأنه غير  
موجود ، ومحيط : أى محص ماتعملون ، وعلى مكاتكم : على غاية تمكنكم من أمركم  
وأقصى استطاعتكم وإمكانكم ، يقال مكن مكانة : إذا تمكن أبلغ تمكن ، وارتقبوا :  
أى وانتظروا ، والصيحة : أى صيحة العذاب ، وجاثمين : أى باركين على ركبهم  
مكبيين على وجوههم ، وغنى بالمكان : أقام به ، وبعدا : أى هلاكاً لهم .

## المعنى الجملى

بعد أن جادلوه أولاً بالتي هي أحسن ، وعُمِّيت عليهم العليل ، وضاعت بهم الحيل ، ولم يجدوا للمحاورة ثمرة - تحوّلوا إلى الإهانة والتهديد ، وجعلوا كلامه من الهديان والتخليط الذى لا يُفهم معناه ، ولا تُدرِكُ فحواه ، فقابلهم بالإنداز بقرب الوعيد ، ونزول العذاب الشديد .

## الايضاح

( قالوا يا شعيب ما نفقه كثيرا مما تقول ) أى ما نعلم حقيقة كثير مما تقول وتخبّرنا به ، من بطلان عبادة آلهتنا ، وقبح حرية التصرف فى أموالنا ، ومجىء عذاب يحيط بنا ، وإصابتنا بمثل الأحداث التى أصابت من قبلنا ، كأن أمرها بيدك ، يصيب بها ربك من يشاء لأجلك .

( وإنا لتركنا فيما ضعيفا ) لاقوة لك ولا قدرة على شئ من الضر والنفع ، ولا تستطيع أن تمتنع منا إن أردنا أن نبطش بك .

( ولولا رهطك لرجمناك ) أى ولولا عشيرتك الأقربون لقتلناك بالحجارة حتى تُدفن فيها .

( وما أنت علينا بعزير ) أى وما أنت بذى عزة ومنعمة تحول بيننا وبين رجمك ، وإنما نُعزِّزُ رهطك على قلتهم ؛ لأنهم منا وعلى ديننا الذى نبذته وراء ظهرك وأهنته ، ودعوتنا إلى تركه لبطلانه فى زعمك .

فوبخهم شعيب على سفاهتهم كما حكى سبحانه عنه .

( قال يا قوم أرهطى أعزُّ عليكم من الله ) أى قال يا قوم : أرهطى أعزُّ عليكم وأكرم من الله حتى كان امتناعكم عن رجمى بسبب انتسابى إليهم ، وأنهم رهطى ؛ لاسبب انتسابى إلى الله تعالى الذى أدعوكم إليه بأمره .

( واتخذتموه وراءكم ظهريا ) أى واستخفتم بربكم فجعلتموه خلف ظهوركم ،

لا تأتمرون لأمره ، ولا تخافون عقابه ، ولا تعظمونه حق التعظيم ، وكان القوم يؤمنون بالله ويشركون به سواء . وأكثر الناس اليوم لا يراقبون الله في أقوالهم ولا في أعمالهم . فيرجوه إذا أحسنوا ، ويخافوه إذا أساءوا ، ويتسابقوا إلى الإحسان ابتغاء مرضاته :

( إن ربى بما تعملون محيط ) أى إن ربى محيط علمه بملككم فلا يخفى عليه شيء منه وهو مجازيكم عليه ، وأما رهطى فلا يستطيعون لكم ضرا ولا نفعا .

ولا يخفى ما فى ذلك من التهديد والوعيد .

ثم هددهم مرة أخرى فقال :

( ويا قوم اعملوا على مكانتكم ) أى ويا قوم اعملوا ما استطعتم على منتهى تمككنكم فى قوتكم وعصبيتكم .

وخلاصة ذلك — اثبتوا على ما أنتم عليه من الكفر والشاقة وسائر ما لا خير فيه ، وهذا كلام من واثق بقوته بربه ، وضمف قومه على كثرتهم ، وإدلالهم عليه ، وتهديدهم له بقوتهم .

( إني عامل ) على مكانتى على قدر ما يؤيدنى الله به من وسائل التأييد والتوفيق . ( سوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه ومن هو كاذب ) أى سوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه ويذله ، أنا أم أنتم ؟ ومن هو كاذب فى قوله ، ومن هو صادق منى ومنكم — وهذا تصريح منه بالوعيد بعد التلميح بالأمر بالعمل المستطاع تعجيزاً لهم . ( وارتقبوا إني معكم رقيب ) أى وانتظروا ما أقول لكم من حلول ما أعدكم به وظهور صدقه ، إني مرتقب منتظر .

ثم ذكر أنه كان صادقا فى وعيده لهم فحل بهم سوء العذاب فقال :

( ولما جاء أمرنا نجينا شعيبا والذين آمنوا معه برحمة منا ) أى ولما جاء أمرنا بعذابهم الذى أنذروه نجينا رسولنا شعيبا والذين آمنوا به فصدقوه على ما جاءهم به من عند ربهم برحمة خاصة بهم .

( وأخذت الذين ظلموا الصيحة فأصبحوا فى ديارهم جائمين ) أى وأخذت أولئك

الظالمين بسبب ظلمهم صيحة العذاب كالتى أخذت ثمود فأصبحوا جميعا باركين على ركبهم مكبين على وجوههم فى ديارهم .  
( كأن لم يغنوا فيها ) أى كأنهم لم يقيموا فيها متصرفين فى أطرافها متقلبين فى أكنافها .

ثم دعا عليهم بالهلاك فقال :

( أ لا بعدا لمدن كما بعدت ثمود ) أى هلاكهم وبعدا من رحمة الله كما بعدت من قبلهم ثمود من رحمته بإزال سخطه بهم .

والخلاصة — إن الله أرسل على كل من ثمود ومدين صاعقة ذات صوت شديد فرجفت أرضها ، وزلزلت من شدتها ، وخرروا ميتين ، وكانت صاعقتها أشد من الصاعقة التى أخذت بنى إسرائيل حين قالوا ( أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً ) وقد أحيام الله عقبها ، لأن هذه تربية لقوم نبى فى حضرته ، وتلك صاعقة كانت عذاب خزى لمشركين ظالمين معاندين أنجى الله نبى كل منهما ومؤمنيهما قبلها .

### قصة موسى وفرعون

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ (٩٦) إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ  
فَاتَّبَعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ (٩٧) يَقْدُمُ قُوَّةَهُ يَوْمَ  
الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَبِئْسَ الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ (٩٨) وَأَتَّبَعُوا فِي هَذِهِ لَعْنَةَ  
وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ بِئْسَ الرِّفْدُ الْمَرْفُودُ (٩٩)

### تفسير المفردات

الآيات : هى الآيات التسع المعدودة فى سورة الإسراء والمفصلة فى سورة الأعراف وغيرها ، والسلطان المبين : هو ما آتاه الله من الحجج البالغة فى محاوراته مع فرعون

وملئه ، والملأ : أشرف القوم وزعماؤهم ، وما أمر فرعون : أى ماشأته وتصرفه ، برشيد: أى بذى رشد وهدى ، وقدم يقدم ( كمنصر ينصر ) : تقدم ، فأوردهم النار : أى أدخلهم إياها ، والورد بلوغ الماء فى مورده من نهر وغيره ، والمورود : الماء والمراد به هنا النار ، وأتبعوا : أى وألحقت به لعنة ، والرشد : ( بالكسر ) : العطاء والعون . فيقال رفته وأرفده : أعانه وأعطاه ، والمرفود : المعطى .

### المعنى الجملى

ذكر سبحانه فى هذه الآيات قصص موسى مع فرعون وملئه للإعلام بأن عاقبة فرعون وأشرف قومه اللعنة والملاك ككفار أولئك الأقسام الظالمين وإن كان عذاب الخزي وهو الفرق فى البحر لم يعم جميع قومه ، بل لحق من اتبع موسى وسار أرم للأسباب التى سلف ذكرها فى سورة الأعراف .

### الايضاح

( ولقد أرسلنا موسى بآياتنا وسلطان مبين إلى فرعون وملئه ) أى ولقد أرسلناه موسى إلى فرعون وملئه مصحوبا بآيات بينات دالة على توحيد الله ، وفيها السلطان المبين ، والحجة الواضحة على صدق نبوته ، وإنما خص الملأ بالذكر وقد أرسل إلى قومه جميعا ، لأنهم أهل الحل والعقد والاستشارة فى دولته ، ويعهد إليهم بتنفيذ ما يقرره من الأمور ، فغيرهم يكون تبعاً لهم فى كل ما يأتون ويذرون .

( فاتبعوا أمر فرعون ) فى كل ما قرره من الكفر بموسى ورد ما جاءهم به من عند الله ، وتشديد الظلم على بنى إسرائيل بتقيل أبنائهم واستحياء نساءهم إلى نحو أولئك مما جاء فى السور الأخرى مفصلاً .

( وما أمر فرعون برشيد ) أى وما شأنه وتصرفه بصالح حميد العاقبة ، بل هو محض غي وضلال ، وظلم وفساد ، لغروره بنفسه ، وكفرانه بربه ، وطمعانه فى حكمه .

ثم ذكر جزاءه مع قومه في الآخرة فقال :

( يقدم قومه يوم القيامة فأوردهم النار ) أى يتقدم قومه يوم القيامة ويكونون تبعاً له كما كانوا تابعين في الدنيا إلا من آمن ، فيوردهم جهنم معه : أى يدخلهم إياها . وقد ورد أن آله يُعْرَضُونَ عَلَى النَّارِ مِنْذِمَاتُوا صَبَاحاً وَمَسَاءً مِنْ كُلِّ يَوْمٍ كَمَا قَالَ تَعَالَى : « وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ . النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ » .

( وبئس الورد المورود ) أى وبئس الورد الذى يردونه النار ، لأن وارد الماء إما يرده لتبريد كبده وإطفاء غلته من حر الظمأ ، ووارد النار يحترق فيها احتراقاً .

قال ابن عباس رضى الله عنه فى الآية : الورد الدخول وقد ذكر فى أربعة مواضع : فى هود « وَبِئْسَ الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ » وفى مريم « وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا » وفى الأنبياء « حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَهَا وَارِدُونَ » وفى مريم أيضاً « وَنَسُوقُ الْمَجْرِمِينَ إِلَى جَهَنَّمَ وَرِدًّا » وكان يقول : والله ليردن جهنم كل بر وفاجر « ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا » .

( وأتبعوا فى هذه لعنة ويوم القيامة ) أى وألحقت بهم لعنة عظيمة ممن بعدهم من الأمم ، ويوم القيامة أيضاً يلعنهم أهل الموقف جميعاً فهى تابعة لهم حينما ساروا ، ودائرة أينما داروا .

والآية بمعنى قوله : « وَأَتَّبَعْنَاهُمْ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ هُمْ مِنَ الْمَقْبُوحِينَ » .

وقد سمي الله هذه اللعنات رفاً تهكماً بهم فقال :

( بئس الرفد المرفود ) أى بئس العطاء المعطى هذه اللعنة التى أتبعوها

فى الدنيا والآخرة .

وفي الآيات من العبرة أن في البشر فِرَاعنة كثيرين يُغَوُّون الناس ويستعبدونهم ، فيطيعونهم و يَدِينُون لهم ذل العبيد ، ولا تنفيذهم هداية القرآن شيئا . ومنهم من يدعون الإسلام ولا يفقهون قول الله لرسوله في آية مبايعة النساء ( وَلَا يَعْصِيكَ فِي مَعْرُوفٍ ) وقوله صلى الله عليه وسلم « لاطاعة لأحد في معصية الله إنما الطاعة في المعروف » .

### العبرة بقصص الأمم الظالمة وبما آل إليه أمرها

ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْقُرَى نَقِصُهُ عَلَيْكَ مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ (١٠٠) وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ، فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ لَمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ (١٠١) وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ ، إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ (١٠٢)

### المعنى الجملى

بعد أن ذكر قصص الأمم الماضية والقرون السالفة مع الرسل الذين أرسلوا إليهم ، نبه إلى مافى ذكرها من عظة واعتبار بقوله : ( منها قائم وحصيد ) فالسامع لها والقارى يلبين قلبه ، وتخضع نفسه ، فيحمله ذلك على النظر والاعتبار بها - إلى مافى إخباره صلى الله عليه وسلم بها من غير مطالعة كتب ولا مدارس مع معلم ، من عظيم الدلالة على نبوته ، إذ أن هذا لا يكون إلا بوحي من العلى الأعلى أتاه به روح القدس .

### الايضاح

( ذلك من أنباء القرى نقصه عليك ) أى ذلك الذى قصصناه عليك بعض أخبار الأمم الماضية ، وأمّ أطوار اجتماعها فى المدائن والقرى من قوم نوح ومن بعدهم ، نقصه (٦)

عليك في هذا القرآن ، لتتلوه على الناس ويتلوه المؤمنون آناء الليل وأطراف النهار  
إنذارا وتبليغا عنا .

(منها قائم وحصيد) أى من تلك القرى ما بقيت آثارها ماثلة كالزرع القائم  
في الأرض كقوم صالح ، ومنها ما عَفَتْ ودرست آثارها كالزرع المحصود الذى لم يبق منه  
بقية في الأرض كقرى قوم لوط .

(وما ظلمناهم ولكن ظلموا أنفسهم) أى وما كان إهلاكهم بغير جُرْم استحقوا  
به الهلاك ، ولكن ظلموا أنفسهم بشركهم وإفسادهم في الأرض وإصرارهم على ذلك  
حتى لم يبق فيهم استعداد لقبول الحق ، ولو بقوا زمانا ما زادوا إلا ظلما ونجورا وفسادا  
في الأرض كما قال نوح عليه السلام : « إِنَّكَ إِذْ تَدْرَهُمْ يُصَلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا  
إِلَّا أَفْجَارًا كَفَّارًا » .

وقد بالغ رسلهم في وعظهم وإرشادهم فما زادهم ذلك إلا عتورا واستكبارا ، وأنذروهم  
بالنذر فما زادهم ذلك إلا إصرارا وعنادا ، ثقة منهم بأن آهتهم تدفع عنهم كل مخوف ،  
وتبعد عنهم كل محذور ، جهلا منهم بما كانوا يعملون . ومن ثم قال :

( فما أغنت عنهم آهتهم التي يدعون من دون الله من شيء لما جاء أمر ربك )  
أى فما نفعتهم ولا دفعت بأس الله عنهم آهتهم التي كانوا يعبدونها من دون الله ويطلبون  
منها أن تدفع عنهم الضر بنفسها أو بشفاعتها عنده - لما جاء عذاب ربك تصديقا  
لما أنذروهم به رسله .

( وما زادهم غير تقييب ) يقال تَبَّيَه تَمَيِّبًا : أهلكه ، وتبَّ فلان وتبت يده : خسر  
أو هلك ، وتبَّ فلان : دعاء عليه بالهلاك ، أى وما زادهم إلا هلاكا وتدميرا ، إذ أنهم  
باتكاهم عليهم ازدادوا كفرا وإصرارا على الظلم والفساد ، ظنا منهم أنهم ينتقمون لهم  
من الرسل كما حكى الله تعالى عن بعضهم قوله : « إِنَّ نَقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ  
أَهْلَتِنَا بِسُوءٍ » .

(وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهي ظالمة) أي ومثل ذلك الأخذ بالعذاب وعلى نهجه وطريقه ، أخذ ربك أهل القرى وهي متلبسة بالظلم ، فذلك عقاب لامفرّ منه ولا مهرب .

وفي هذا إنذار وتحذير من سوء عاقبة الظلم لكل قرية ظالمة في كل زمان ومكان (إن أخذه أليم شديد) أي إن أخذه وجميع قاس لا يُرجى منه الخلاص .

روى أحمد والبخارى ومسلم والترمذى وابن ماجه عن أبى موسى الأشعري رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « إن الله تعالى ليملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته ثم قرأ : « وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ » فليعتبر الظالمون بهذا ، ولا يغتروا بالدين الذى ينتسبون إليه دون أن يعملوا ما يرفع عنهم غضب ربهم ونقمته ، فربما كان ذلك إملاء منه تعالى واستدراجا لهم .

### العظة بعذاب الآخرة

إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِمَنْ خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ ، ذَلِكَ يَوْمٌ مَجْمُوعٌ لَهُ النَّاسُ وَذَلِكَ يَوْمٌ مَشْهُودٌ (١٠٣) وَمَا نُؤَخِّرُهُ إِلَّا لِأَجَلٍ مَعْدُودٍ (١٠٤) يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلِّمُنَّ أَنْفُسَ إِلَّا بِإِذْنِهِ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ (١٠٥) فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ (١٠٦) خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ (١٠٧) وَأَمَّا الَّذِينَ سَعِدُوا فِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءٌ غَيْرٌ مَجْذُودٍ (١٠٨) فَلَاتَكُ فِي مِرْيَةٍ مِمَّا يَعْبُدُ هَؤُلَاءِ

مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ آبَاؤُهُمْ مِنْ قَبْلُ، وَإِنَّا لَمُوفُونَهُمْ نَصِيبُهُمْ غَيْرَ  
مَنْقُوصٍ (١٠٩)

### المعنى الجملى

بعد أن ذكر العبرة في إهلاك الأمم الظالمة في الدنيا - ذكر هنا العبرة بجزاء الآخرة  
للاشقياء والسعداء ، فالأولون يصلون النار التي لهم فيها شهيق وزفير ، والآخرون  
يتمتعون بالجنة التي فيها ما تشتهيبه الأنفس وتلذ الأعين وهم فيها خالدون .

### الايضاح

( إن في ذلك لآية لمن خاف عذاب الآخرة ) أى إن فيما قصه الله من إهلاك  
أولئك الأمم وبيان سنته في عاقبة الظالمين ، لحجة بينة وعبرة ظاهرة لمن يخاف عذاب  
الآخرة يعتبر بها فيمتق الظلم في الدنيا على سائر ضروبه ، إذ يعلم أن من عذب الظالمين  
في الدنيا قادر أن يعذبهم في الآخرة ، وأن ماحق بهم في دار الفناء ، أنموذج لما يكون  
لهم في دار البقاء .

والماديون في هذا العصر وفي عصور سابقة كما حكاها البيضاوى عن بعض أهل  
عصره يقولون : إن الطوفان والصاعقة وخسف الأرض كل أولئك قد حدثت بأسباب  
طبيعية لا بإرادة الله واختياره لتربية الأمم - ويكفى في الرد عليهم أن يقال : إن  
حدوث هذه الأشياء وغيرها بالأسباب الموافقة لسنة الله في نظام العالم هو المراد  
بالتقضاء والقدر في القرآن الكريم ، والله تعالى أحدث هذه الأسباب في أوقات معينة  
بحكمته لعقاب تلك الأمم بها ، ولم تكن من قبيل المصادقات .

والدليل على ذلك أن أولئك الرسل أذروا أقوامهم بجدوئها قبل أن لم تكن ،  
ومنهم من ذكر وقتها على سبيل التعمين والتحديد ، وهكذا يفعل الله بالظالمين في كل

زمان وإن لم يكن فيهم من يندرم بوقوع ما يحل بهم اكْتِفَاءً بِإِنذَارِ الْقُرْآنِ كَمَا قَالَ :  
« وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ » .

( ذلك يوم مجموع له الناس ) أى ذلك اليوم الذى يقع فيه عذاب الآخرة يوم  
يُجْمَعُ له الناس كلهم ليحاسبوا على ما عملوا ثم يوفوا جزاءهم بالعدل والقسطاس .

( وذلك يوم مشهود ) أى وذلك يوم يشهده الخلائق جميعا من الإنس والجن  
والملائكة وغيرهم .

( وما تؤخره إلا لأجل معدود ) أى وما تؤخر ذلك اليوم إلا لانتهاؤ مدة معلومة  
فى علمنا لا تزيد ولا تنقص ، وهى انتهاء مدة الدنيا ، وكل شىء معدود محدود فهو  
قريب ، ولم يطلع الله أحدا من خلقه على معرفة ذلك اليوم .

( يوم يأت لاتكلم نفس إلا بإذنه ) أى فى ذلك الحين الذى يحىء فيه اليوم  
المعين لاتكلم نفس من الأنفس الناطقة إلا بإذنه تعالى ، إذ لا يملك أحد فيه قولاً ولا فعلاً  
إلا بإذنه كما قال تعالى : « يَوْمَئِذٍ يَدْعِمُونَ الدَّاعِيَ لَأَعْوَجَ لَهُ وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ  
لِلرَّحْمَنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا » وقال : « هَذَا يَوْمٌ لَا يَنْطِقُونَ ، وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ  
فَيَعْتَدِرُونَ » وقال : « يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا لَا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ  
أُذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَابًا » .

( فمنهم شقى وسعيد ) أى فمن يُجْمَعُ فى ذلك اليوم ؛ شقى مستحق للعذاب الأليم  
الذى أوعِد به الكافرون ، وسعيد مستحق لما وعد به المتقون ، من الثواب والنعم الدائم .  
والأطفال والمجانين لا يدخلون فى هذا التقسيم لعدم التكليف — ويدخل فيه من  
استوت حسناتهم وسيئاتهم من المؤمنين ، ومن تغلب سيئاتهم ويعاقبون عليها إلى حين  
ثم يدخلون الجنة ، لأنهم من فريق السعداء باعتبار العاقبة . فالسعداء درجات ،  
والأشقياء دركات .

روى الترمذى وأبو يعلى وغيرهما عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال : لما نزلت « فمنهم شقى وسعيد » قلت : يا رسول الله فعلام نعمل ؟ على شيء قد فرغ منه أو على شيء لم يُفرغ منه ؛ قال : « بل على شيء قد فرغ منه وجرت به الأقدام يا عمر ، ولكن كلُّ ميسر لما خلق له » وروى عن على كرم الله وجهه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه كان في جنازة فأخذ عودا فجعل ينكت في الأرض فقال : « اعملوا فكل ميسر لما خلق له » وقرأ : « فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى » والمراد أن الله يعلم الغيب وأنه يعلم المستقبل كله بجميع أجزائه وأطرافه ، ومنه عمل العاملين وما يترتب على كل عمل من الجزاء بحسب وعده ووعيده في كتابه المنزل وكتابه للمقايير ، والنبي صلى الله عليه وسلم علمنا أن الجزاء بالعمل ، وأن كل إنسان ميسر له ومسهل عليه ما خلقه الله لأجله من سعادة الجنة ، أو شقاوة النار ، وأن ما وهبه من الاستعداد والعزيمة يكون له تأثير في تربية النفس وتوجيهها إلى ما تعتقد أن فيه سعادتها وخيرها .

ثم فصل جزاء الفريقين فقال :

( فأما الذين شقوا في النار لهم فيها زفير وشهيق ) الزفير تنفس الصُّعداء من الهم والكرب إذا امتد واشتد وُسِّع صوته ، والشهيق النشيج في البكاء إذا اشتد تردده في الصدر وارتفع به الصوت ، أى فأما الذين شقوا في الدنيا بما كانوا يعملون من أعمال الأشقياء لفساد عقيدتهم الموروثة وسوء القدوة في العمل حتى أحاطت بهم خطيئاتهم وانطفأ نور الفطرة من أنفسهم ، فلهم في النار التي هي مستقرهم ومثوالم زفيرٌ وشهيق من حرج صدورهم وضيق أنفاسهم وشدة كربهم .

( خالدين فيها مادامت السموات والأرض ) أى ما كثرن فيها مكث خلود وبقاء مدة دوام السموات التي تظلمهم والأرض التي تقلِّهم ، والمراد التأييد ونفي الانقطاع على منهج قولهم : لأفعله ما بدا كواكب ، وما أضاء الفجر ، وما تغنت حمامة ، والنصوص متظاهرة على تأييد قرارهم فيها .

وسماء كل من أهل الجنة والنار ما هو فوقهم ، وأرضهم ما هم مستقرون عليه وهو تحتهم ، كما قال تعالى « يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ » وقال ابن عباس والشدّي والحسن : لكلِّ أرضٍ وسماء .

(إلا ما شاء ربك) أى إن هذا الخلود دائم إلا ما شاء ربك من تغيير فى هذا النظام فى طور آخر ، إذ أنه إنما وضع بمشيئته وسيبق كذلك ، ويراد بمثل هذا فى سياق الأحكام القطعية الدلالة على تقييد تأييدها بمشيئته تعالى فقط ، للإفادة عدم عمومها كما فى قوله : « قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ » أى لأملك شيئاً من ذلك بقدرتى إلا ما شاء الله أن يملكه منه بتسخير أسبابه وتوفيقه ، ونحو ذلك قوله : « سَنَقَرْنَاكَ فَلَا تَنْسَى إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ » أى إنه تعالى ضمن لنييه حفظ القرآن الذى يقرئه إياه وعصمه ألا ينسى منه شيئاً كما هو مقتضى الضعف البشرى إلا أن يكون بمشيئة الله فهو وحده القادر على ذلك .

(إن ربك فمال لما يريد) فما شاء كان وما لم يشأ لم يكن ؛ ومشيئته تعالى إنما تتعلق بما سبق به علمه واقتضته حكمته ، وما كان كذلك لم يكن إخلافاً لشيء من وعده ولا من وعيده كخلود أهل النار فيها .

(وأما الذين سعدوا فى الجنة خالدين فيها مادامت السموات والأرض إلا ما شاء ربك عطاء غير مجذوذ) المجذوذ: المقطوع ، من جذه إذا قطعه أو كسره ، وهو كقوله : « لَّهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ » أى إن هذا الجزاء هبة منه وإحسان دائم غير مقطوع ، وقد كثر وعد الله تعالى للمؤمنين المحسنين بأنه يزيدهم من فضله ، وبأنه يضاعف لهم الحسنه بعشرة أمثالها ، وبأكثر من ذلك إلى سبعائه ضعف ، وبأنه يجزيهم بالحسنى ، وبأحسن مما عملوا - ولم يوعد بزيادة جزاء الكافرين والمجرمين على ما يستحقون ، بل أوعدهم بأنه يجزيهم بما عملوا ، وبأن السيئة بمثلها وهم لا يظلمون ، وبأنه لا يظلم أحداً ، وهذا الجزاء وهو الخلود فى النار أثر طبيعى لتدسية النفس بالكفر والظلم والفساد.

وبعد أن شرح سبحانه أفاصيص عبدة الأوثان ، ثم أتبعه بأحوال الأشقياء والسعداء ، أنذر أعداء النبي صلى الله عليه وسلم والمشركين من قومه بما حل بالأمم المهلكة من العذاب فقال :

( فلا تك في مرية مما يعبد هؤلاء ) أى إذا كان أمر الأمم المشتركة الظالمة في الدنيا ثم في الآخرة كما قصصناه عليك ، فلا تكن في أدنى ريب مما يعبد قومك هؤلاء في عاقبته بمقتضى تلك السنن التي لا تبديل لها .

وفي ذلك تسليمة له صلى الله عليه وسلم ووعيد لقومه كما لا يخفى .

ثم بين حالهم في عبادتهم وجزاءهم عليها فقال :

( ما يعبدون إلا كما يعبد آباؤهم من قبل ، وإنا لوفوهم نصيبهم غير منقوص ) أى إنهم أشبهوا آباءهم في الجهل والتقليد فهم مقلدون لهم ، وإنا لمطوهم نصيبهم من جزاء أعمالهم في الدنيا وأفيا تاماً لا ينقص منه شيء كما وفينا آباءهم الأولين من قبل ؛ فأعمال الخير التي يعملونها في الدنيا كبر الوالدين وصلة الأرحام وإغاثة الملهوف يوفون جزاءهم عليها بسعة الرزق وكشف الضر جزاء تاماً وأفيا ولا يجزون عليها في الآخرة ، ومثل هذا الجزاء متاع عاجل لا يلبث أن يزول .

وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاخْتَلَفَ فِيهِ وَلَوْ لَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ  
مِنْ رَبِّكَ لَقَضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ (١١٠) وَإِنْ كَلَّا لَمَا  
لِيُوفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَالَهُمْ إِنَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (١١١)

### المعنى الجملى

بعد أن ذكّر مشركى مكة بأقوام غلب عليهم الكفر والجحود ولم يؤمن إلا القليل منهم ، فوفاهم جزاء أعمالهم في الدنيا وسيوفيههم جزاءهم في الآخرة - ذكّرم في هاتين

الآيتين بقوم موسى الذين آتاهم الكتاب فاختلّفوا فيه ، وأن مثل الذين يمتثلون من أمته في الكتاب مثل هؤلاء .

## الايضاح

( ولقد آتينا موسى الكتاب فاختلف فيه ) أى فاختلف في الكتاب وكونه من عند الله فأمن به قوم وكفر به آخرون ، فلا تبال باختلاف قومك فيما آتيناك من القرآن كقولهم « لَوْلَا أَنْزَلَ عَلَيْهِ كَنْزٌ أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ » وزعمهم أن القرآن مفترى .

( ولولا كلمة سبقت من ربك لقضى بينهم ) الكلمة هى كلمة القضاء بتأخير العذاب إلى الأجل المسمى بحسب الحكمة الداعية إلى ذلك ، أى ولولا ماتقدم من حكم الله بتأخير إهلاك البغاة المثيرين للاختلاف فيه بأهوائهم ، وإبقاء المعتصمين بالوحدة والاتفاق على هدايته ، لأهلكهم ، كما أهلك الذين ردوا دعوة الرسل جحودا وعنادا . ( وإنهم لفي شك منه مريب ) أى وإن المكذبين به منهم لفي شك موقع في الريب والاضطراب ، فلا يدرون أحق هو أم باطل .

وجاء في معنى الآية قوله « شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ ، كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ، اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ . وَمَا تَفَرَّقُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بِنِعْمَتِ رَبِّهِمْ ، وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى لَفُضِيَ بَيْنَهُمْ ، وَإِنَّ الَّذِينَ أُورِثُوا الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ » والذين أورثوا الآيات بعد من تقدم ذكرهم من الأنبياء هم اليهود والنصارى وقد عرض لهم من الشك والريب في كتبهم ما لم يكن في عهد

سلفهم ، إذ أن التوراة التي كتبها موسى عليه السلام قد فُقدت في إحراق البابليين لهيكل سليمان ، والنصارى كانوا أشد اختلافًا في كتبهم ومذاهبهم .  
 ( وإن كلالما ليوفينهم ربك أعمالهم إنه بما يعملون خبير ) أى وإن كل أولئك المختلفين الذين قصصنا عليك قصصهم ليوفينهم ربك جزاء أعمالهم إن خيرا فخير وإن شرا فشر ، إذ لا يخفى عليه شيء منها .

فَاسْتَقِمُّ كَمَا أُمِرْتَ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْفَؤْا إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (١١٢) وَلَا تَزِرُ كَيْفُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ (١١٣)

### المعنى الجملى

بعد أن بين أمر المختلفين في التوحيد والنبوة ، وأطنب في وعدهم ووعدهم أمر رسوله صلى الله عليه وسلم ومن تاب معه بالاستقامة وهى كلمة جامعة لكل ما يتعلق بالعلم والعمل والأخلاق الفاضلة .

### الإيضاح

( فاستقم كما أمرت ومن تاب معك ولا تطفؤا ) أى فالزم الصراط المستقيم الذى لا عوج فيه واثبت عليه ، وكذلك فليستقم من تاب من الشرك وآمن معك ، ولا تنحرفوا عما رسم لكم بتجاوز حدوده غلوًا فى الدين ، فإن الإفراط فيه كالتفريط كلاهما زرع عن الصراط المستقيم .

وفى هذا إيماء إلى وجوب اتباع النصوص فى الأمور الدينية من عقائد وعبادات واجتناب الرأى وبطلان التقليد فيها .

وإيضاح هذا — إن تحكيم العقل البشرى في الخوض في ذات الله وصفاته وفيما دون ذلك من عالم الغيب كالملائكة والعرش والجنة والنار — تجاوز لحدوده، فإن أ كبر العلماء والفلاسفة عقولا معجزوا إلى اليوم عن معرفة كنه أنفسهم وأنفس مادونهم من المخلوقات صغيرها وكبيرها حتى الحشرات منها كالنحل والنمل، فأتى لهم أن يعرفوا كنه ذات الله وصفاته أو معرفة حقيقة ملائكته وغيرهم من جند الله ؟ .

ولما خرج متأخر الأمة عن هدى سلفهم من الصحابة والتابعين لهم بإحسان زاغوا فكانوا: « مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيعًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ » فسقط بعضهم في خيال التشبيه، و بعضهم في خيال التعطيل .

ولو كانوا قد نهجوا نهج السابقين لتجنبوا أسباب الخلاف والتفرق في الدين الذي أوعد الله أهله بالعذاب العظيم وبرأ رسوله منهم .

والواجب التزام كتاب الله ومافسرته به سنة رسوله صلى الله عليه وسلم من العبادات العملية بدون تحكم بالرأى والقياس، والمعاملات على النحو الذي بينه الكتاب والسنة على السنن القويم دون تأويل ولا تخريج لهما على غير مايفهم من ظاهرهما .

أما الاختلاف فيما عدا ذلك من أمور القضاء والسياسة وأمور المعاش من زراعات وتجارات فهو أمر طبيعي لا يمكن الغنى عنه، فلولاه لما تقدمت شؤون الحياة، ولما حصل التنافس لدى أرباب المهن والصناعات، ولما جد كل يوم بدع جديد (موضه) ولما كان الناس دائما على الفطرة الأولى، وأتى لعقل الإنسان أن يستمر على حال واحدة وقد أتى الخلافة في الأرض وحسن استعمارها، وبهذا وحده فَضَّلَ الملائكة والله في خلقه شؤون .

وقد بين سبحانه لنا المخرج إذا حدث بيننا الخلاف في الدين فقال: « فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ » الآية وقد فسر ذلك النبي صلى الله عليه

وسلم بقوله لمعاد بن جبل حين ولاه القضاء في اليمين « بم تقضى ؟ قال بكتاب الله . قال فإن لم تجد ؟ قال فبسنة رسوله . قال فإن لم تجد ؟ قال أجتهد رأبي - فأقره على ذلك » . وهذا هو الاستقامة في الدين التي بها يرقى المرء إلى أعلى عليين ، وقد حث الله رسوله عليها في هذه الآية وحث موسى وهارون عليها فقال : « قَدْ أُجِيبَتْ دَعْوَتُكُمْ فَاسْتَقِيمَا » .

ومدح من اتصفوا بها ووعدهم بالخير والفلاح في الآخرة فقال : « إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبَّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ » .

وروى مسلم عن سفيان الثقفى قال : « قلت يارسول الله قل لى فى الإسلام قولاً لا أسأل عنه أحدا بعدك . قال : ( قل آمنت بالله ثم استقم ) » .  
( إنه بما تعملون بصير ) أى إنه تعالى بصير بملككم ومحيط به فيجزىكم به ، فاتقوه إن يطلع عليكم وأنتم عاملون بخلاف أمره .

ونظير هذه الآية قوله « فَلِذَلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَقُلْ آمَنْتُ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ كِتَابٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمْ اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ ، لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ ، اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ » .

( ولا تركنوا إلى الذين ظلموا فتمسكم النار ومالكم من دون الله من أولياء ثم لا تنصرون ) الركون إلى الشيء : الاعتماد عليه ، وركن الشيء : جانبه الأقوى ، وما تتقوى به من ملك وجند وغيره ومنه قوله تعالى « فَتَوَلَّى بِرُكْنِهِ » والمراد من الظالمين هنا أعداء المؤمنين الذين يؤذونهم ويفتنونهم عن دينهم من المشركين ليردوهم عنه ، فهم بمعنى الذين كفروا فى الآيات الكثيرة ، وتمسكم النار ، أى تصيبكم ، أى لا تستندوا إلى الذين ظلموا من قومكم المشركين ولا من غيرهم فاجعلوهم ركناً لكم

تعتمدون عليه فقروهم على ظلمهم وتوالوهم في شئونكم الحربية وأعمالكم الدينية ،  
فإن الظالمين بعضهم أولياء بعض .

وخلاصة ذلك — لاستعينوا بالظلمة فتكونوا كأنكم رضىتم عن أعمالهم ، فإن فعلتم  
ذلك أصابتكم النار التي هي جزاء الظالمين بسبب ركونكم إليهم والاعتزاز بهم والاعتماد  
عليهم ، والركونُ إلى الظلم وأهله ظلم « وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَاِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ  
لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ » .

وليس لكم في هذه الحال التي تركنون فيها إليهم غير الله ولياً ينقذكم ويخلصكم  
من عذابه ، ثم لاتنصرون : أى لاينصركم الله لأن الذين يركنون إلى الظالمين يكونون  
منهم وهو لاينصر الظالمين كما قال « وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ » بل تكون عاقبتكم  
الحرمان مما وعد الله رسله ومن ينصره من المؤمنين .

والخلاصة — إن الركون إلى الظالمين المنهى عنه هو الاعتماد على أعداء المؤمنين  
الذين يفتنونهم ويصدونهم عن دينهم ، ويؤيده ماروى عن ابن عباس رضى الله عنه  
أنه فسر الظلم هنا بالشرك ، والذين ظلموا بالمشركين ، وقيل إنها عامة في الظلمة من  
غير فرق بين كافر ومسلم ، ولو فرضنا أن سبب النزول هم المشركون ، فالاعتبار بعموم  
اللفظ لا بخصوص السبب .

ومن ابتلى بمخالطة الظلمة فليزن أقوالهم وأفعالهم بميزان الشرع ، فإن زاغوا عن  
ذلك فعلى أنفسهم قد جنّوا ، وطاعتهم واجبة على كل من دخل تحت أمرهم ونهيبهم  
في كل ما يأمرون به مالم يكن في معصية الله ، فمن أمروه أن يدخل في شيء من الأعمال  
التي وكلها إليهم كالمناصب الدينية ونحوها فليدخل فيه إذا وثق من نفسه القدرة على  
القيام به ، إلى أنه يجب الأخذ على أيدي الظالمين عامة وعلى أئمة الجور والأمراء خاصة؛  
ويجب تغيير المنكر أولاً باليد فإن لم يستطع ذلك فباللسان ، وإلا فبالقلب ، وذلك  
أضعف الإيمان ، روى الإمام أحمد وأصحاب السنن عن أبي بكر أنه قام فحمد الله

وأنتى عليه ثم قال: أيها الناس إنكم تقرأون هذه الآية - أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم حتى أتى على آخر الآية ، ألا وإن الناس إذا رأوا الظالم فلم يأخذوا على يديه أوشك الله أن يعمهم بعقابه ، ألا وإنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « إن الناس إذا رأوا المنكر بينهم فلم ينكروه يوشك أن يعمهم الله بعقابه » .

وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفِي النَّهَارِ وَزُلْفَا مِنْ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ  
السَّيِّئَاتِ ، ذَلِكَ ذِكْرِي لِلَّذِينَ كَرِهُوا (١١٤) وَأَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ  
الْمُحْسِنِينَ (١١٥)

### تفسير المفردات

طرف الشيء : الطائفة منه والنهاية ، فطرفا النهار : الغدو والعشى . وروى عن الحسن وقتادة والضحاك أنهما صلاة الصبح والعصر ، والزلف واحدتها زلفة وهي الطائفة من أول الليل اقربها من النهار ، وقال الحسن : هما زلفتان صلاة المغرب وصلاة العشاء ، وذكري : عبرة وعظة ، ولذا كرهين : أى المعتبرين المتعظين .

### المعنى الجملى

بعد أن أمر رسوله بالاستقامة وعدم تجاوز مارسمه الدين ، وعدم الركون إلى أولى الظلم - أمره هنا بأفضل العبادات وأجل الفضائل التى يستعان بها على ماساف .

### الايضاح

(وأقم الصلاة طرفي النهار وزلفا من الليل) أى أداها على الوجه القويم وأدمها فى طرفي النهار من كل يوم ، وفى زلف من الليل ، ونظير هذه الآية قوله فى سورة

طه « وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَى » والتسبيح عام يشمل الصلاة وغيرها .

والآية الصريحة فى أوقات الصلوات الخمس قوله تعالى « فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ، وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ » فالمساء ما بين الظهر والمغرب وهو صلاة العصر ، وصلاة المغرب العشاء الأولى ، وصلاة العتمة العشاء الآخرة التى يزول عندها الشفق وهو آخر أثر لنور النهار .

وخصت الصلاة بالذكر لأنها أس العبادات المغذية للإيمان والمعينة على سائر الأعمال .  
ثم بين فائدة الأمر السابق وحكمته فقال :

( إن الحسنات يذهبن السيئات ) أى إن الأعمال الحسنة تكفر السيئات وتذهب المؤاخذه عنها ، لما فيها من تزكية النفس وإصلاحها ، فتمحو منها تأثير الأعمال السيئة فى النفس وإفسادها لها ، والمراد بالحسنات ما يعم الأعمال الصالحة جميعا حتى ما كان منها تركاً لسيئة كما قال تعالى « إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نَسُكَّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُمْ مُدْخَلًا كَرِيمًا » وجاء فى الحديث الشريف « وأتبع السيئة الحسنة تمحها » والمراد بالسيئات الصغائر لأن الكبائر لا يكفرها إلا التوبة بدليل ما رواه مسلم « الصلوات الخمس كفارة لما بينهما ما اجتذبت الكبائر » .

( ذلك ذكرى للذاكرين ) أى إن فيما ذكر من الوصايا السابقة من الاستقامة والنهى عن الطغيان والركون إلى الذين ظلموا وإقامة الصلاة فى تلك الأوقات ، لعبرة للمعظمين الذين يراقبون الله ولا يذسونه ، وخصهم بالذكر لأنهم هم الذين ينتفعون بها .  
( واصبر فإن الله لا يضيع أجر المحسنين ) أى ووطن نفسك على احتمال المشقة فى سبيل ما أمرت به ، وما نهيت عنه فى هذه الوصايا وفى غيرها ، فإن الله لا يضيع أجر من أحسن عملا بل يوفيه ثواب عمله من غير بخس له .

وفى الآية إيماء إلى أن الصبر من باب الإحسان .

فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ أُولُو بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ  
 فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّنْ أَنْجَيْنَا مِنْهُمْ وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ  
 وَكَانُوا مُجْرِمِينَ (١١٦) وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا  
 مُصْلِحُونَ (١١٧) وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَمَعَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ  
 مُخْتَلِفِينَ (١١٨) إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ ، وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ  
 لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ (١١٩)

### تفسير المفردات

لولا : كلمة تفيد التحضيض والحث على الفعل ، والقرون واحدهم قرن : وهو الجبل  
 من الناس ، قيل هو ثمانون سنة ، وقيل سبعون ، وشاع تقديره بمائة سنة ، والبقية :  
 ما يبقى من الشيء بعد ذهاب أكثره ، واستعمل كثيرا في الألف والاصلاح ، لأن العادة  
 قد جرت بأن الناس ينفقون أردأ ما عندهم ويستبقون الأجود ، ويقال أترفته النعمة  
 أى أبطرته وأفسدته ، وكلمة ربك : أى قضاؤه وأمره .

### المعنى الجملى

بعد أن ذكر عاقبة الأمم للكذب لرسلاها في الدنيا والآخرة وإنذار قومه صلى الله  
 عليه وسلم بهم ، وبين ما يجب عليه وعلى من آمن به وتاب معه من الاستقامة والصلاح  
 واجتناب أهل الظلم والفساد .

ذكر هنا بيان السنن العامة في إهلاك الأمم الذين قص الله قصصهم وأمثالهم ممن  
 عصوا رسل ربهم بعد أن أنذروهم عقابه ، ووعدهم إذا أطاعوم ثوابه .

## الايضاح

(فلولا كان من القرون من قبلكم أولو بقية ينهون عن الفساد فى الأرض) أى فهلا وُجِدَ من أولئك الأقوام الذين أهلكتهم بظلمهم وفسادهم فى الأرض جماعةٌ أولو عقل ورأى وصلاح ينهونهم عن الفساد فى الأرض باتباع الهوى والشهوات التى تفسد عليهم أنفسهم ومصالحهم ، فيحولون بينهم وبين الفساد ، ومن سنة الله ألا يهلك قوماً إلا إذا عمّ الفساد والظلم أكثرهم .

(إلا قليلاً ممن أنجينا منهم) أى ولكن كان هناك قليل من الذين أنجيناهم مع رسلهم منبوذين لا يقبل نهيبهم وأمرهم مهددين مع رسلهم بالإبعاد والأذى .

(واتبع الذين ظلموا ما أترفوا فيه وكانوا مجرمين) أى واتبع الظالمون وهم الأكثر من مازقناهم من أسباب الترف والنعيم فبطروا واستكبروا وصدوا عن سبيل الله ، وكانوا ذوى جرائم بما ولده الترف والنعيم ، فكان هو المستخرّ لعقولهم ، وبذا رجّحوا ما أتوا على اتباع الرسل .

وخلاصة ذلك — إن العقول السليمة كافية للفهم ما فى دعوة الرسل من الخير والصلاح لو لم يمنع استعمال هدايتها الافتتان بالترف والنعيم بدلا من القصد والاعتدال فيه وشكر المنعم عليه ، وقد هدت التجارب إلى أن الترف هو الباعث على النسوق والعصيان والظلم والإجرام ، ويظهر ذلك بديثا فى الرؤساء والسادة ، ومنهم ينتقل إلى الهدم والعمامة فيكون ذلك سببا فى الهلاك بالاستئصال ، أو فى فقد العزة والاستقلال ، وتلك هى سنة الله فى خلقه كما قال : « وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاَهَا تَدْمِيرًا » .

ثم بين سبحانه ما يحول بين الأمم وإهلاكها فقال :

(وما كان ربك ليهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون) الظلم هو الشرك أى إنه تعالى ليس من سنته أن يهلك القرى بشرك أهلها ماداموا مصلحين فى أعمالهم الاجتماعية والعمرائية والمدنية ، فلا يبغضون الناس حقوقهم كما فعل قوم شعيب ، ولا يبغضون بالناس

بطش الجبارين كقوم هود، ولا يذنون لمتكبر جبار كقوم فرعون ولا يرتكبون الفواحش ويقطعون السبيل ويأتون في ناديتهم المنكر كقوم لوط، بل لا بد أن يعضوا إلى الشرك الإنساق في الأعمال والأحكام، ويفعلوا الظلم المدمر للهمران، ومن ثم قالوا: الأمم تبقى مع الكفر ولا تبقى مع الظلم والجور، ويؤيد هذا ما أخرجه الطبراني والديلمي وابن مردويه عن جرير بن عبد الله قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يُسأل عن تفسير هذه الآية فقال: «وأهلها يُنصِف بعضهم بعضاً».

(ولو شاء ربك لجلل الناس أمة واحدة) أى ولو شاء ربك أيها الرسول الكريم، الشديد الحرص على إيمان قومك، الحزين من أجل إعراض أكثرهم عن إجابة دعوتك واتباع هديك - لجلل الناس على دين واحد بمقتضى الغريزة والفطرة لا اختيار لهم فيما يفعلون، فكانوا في حياتهم الاجتماعية أشبه بالنمل والنحل، وفي حياتهم الروحية أشبه بالملائكة مفلطين على طاعة الله واعتقاد الحق وعدم الميل إلى الزيف والجور، لكنه تعالى خلقهم كاسمين لاملهمين، وعاملين بالاختيار لا مجبورين ولا مضطرين وجعلهم متفاوتين في الاستعداد وكسب العلم، وكانوا في أطوارهم الأولى لا اختلاف بينهم، ثم لما كثرت وتنوعت حاجاتهم وكثرت مطالبهم ظهر فيهم الاستعداد للاختلاف كما قال تعالى: «وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُوا».

(ولا يزالون مختلفين إلا من رحم ربك) أى ولا يزالون مختلفين في شئونهم الدينية والدينية بحسب استعدادهم الفطرى، إلا من رحم الله منهم فإنهم يتفقون على حكم كتابه فيهم وهو الذى عليه مدار جمع كلمة الأمة ووحدها.

(ولذلك خلقهم) أى ولشئته تعالى فيهم الاختلاف والفرق في علومهم ومعارفهم وآرائهم، وما يتبع ذلك من الإرادة والاختيار في الأعمال - خلقهم، وبهذا كانوا خلفاء في الأرض، ومن ذلك اختلافهم في الدين والإيمان والطاعة والعصيان، وبذا كانوا مظهراً لأسرار خلقه الروحية والجسدية أو المادية والمعنوية، وقال ابن عباس

خلقهم فريقين فريقا يرحم فلا يمتلف ، وفريقا لا يرحم فيختلف ، فذلك قوله :  
« فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ » .

والخلاصة — إن الناس فريقان : فريق اتفقوا في الدين فعملوا كتاب الله حكا  
بينهم فيما اختلفوا فيه فاجتمعت كلمتهم وكانوا أمة واحدة فرحمهم الله ووفاهم شر الاختلاف  
في الدنيا وعذاب الآخرة ، وفريق اختلفوا في الدين كما اختلفوا في منافع الدنيا فكان  
بأسهم بينهم شديدا فذاقوا عقاب الاختلاف في الدنيا وأعقبه جزاؤهم في الآخرة ،  
فحُرِّمُوا من رحمة الله بظلمهم لأنفسهم ، لا بظلم منه تعالى لهم .

( وتمت كلمة ربك لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين ) أى قد سبق  
في قضائه وقدره وحكمته النافذة أن ممن خلقه من يستحق الجنة ، ومنهم من  
يستحق النار ، وأن الجنة والنار لا يبدأن بملا من عالمي الجن والإنس الذين  
لا يهتدون بما أرسل به رسله وبما أنزل عليهم من كتبه هداية المكلفين والحكم  
بين المختلفين .

وَكَلاَّ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُنَبِّئُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ  
فِي هَذِهِ الْحَقِّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ (١٢٠) وَقُلْ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ  
اعْمَلُوا عَلَى مَكَاتَتِكُمْ إِنَّا عَامِلُونَ (١٢١) وَانْتَظِرُوا إِنَّا مُنْتَظِرُونَ (١٢٢)  
وَاللَّهُ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأُمُورُ كُلُّهَا فاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ  
عَلَيْهِ ، وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (١٢٣)

### تفسير المفردات

القص : تتبع أثر الشيء للإحاطة به كما قال تعالى : « وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ  
فَبِعُصْرَةٍ بِهٍ عَنِ جُنُبٍ وَهَمْ لَا يَشْعُرُونَ » والنبأ : الخبر الهام ، ونبت : أى تقوى  
ونجمل فؤادك راسخا كالجبل ، على مكاتكم : أى على تمككنكم واستطاعتكم .

## المعنى الجملى

بعد أن قص عز وجل قصص أشهر الأنبياء مع أممهم الماضين - بين هنا ما لذلك من فائدة لرسوله وللمؤمنين وهي تثبيت القواد والعظة والاعتبار ، ثم أمر رسوله بالعبادة والتوكل عليه وعدم المبالاة بعداوة المشركين والكيده .

## الإيضاح

(وكلاً نقص عليك من أنباء الرسل) أى وكل نبأ من أنباء الرسل المتقدمين من قبلك مع أممهم ، وما جرى لهم من المحاجات والخصومات ، وما احتمله الأنبياء من التكذيب والأذى ، وكيف نصر الله حزبه وخذل أعداء الكافرين ، نقصه عليك على وجهه لفائدتين :

(١) (مانثبت به فؤادك) أى ما به يقوى فؤادك ويكون ثابتاً كالجبل لتقوم بأعباء الرسالة ونشر الدعوة ، لما لك من الأسوة بإخوانك المرسلين .

(٢) (وجاءك فى هذه الحق وموعظة وذكرى للمؤمنين) أى وإن فى هذه الأنبياء بيان الحق الذى دعا إليه الرسل وهو اعتقاد أنه تعالى واحد مع إخلاص العبادة له وحده والتوبة إليه وترك الفواحش ماظهر منها وماباطن ، وفيها موعظة وذكرى للذين يتعظون بما حلّ بأولئك الأمم من عقاب ، وبيان أن ذلك إنما نالهم بسبب الظلم والفساد .

(وقل للذين لا يؤمنون اعملوا على مكاتكم) أى وقل للكافرين الذين لا يؤمنون فلا يتعظون : اعملوا على ما فى مكاتكم وعلى قدر ما تستطيعون من مقاومة الدعوة وإيذاء الداعى والمستجيبين له .

وفى هذا تهديد ووعيد لهم بما يلقونه من العذاب جزاء ما كسبت أيديهم .  
(إنا عاملون) على مكاتنا وعلى قدر ما نستطيع من الثبات على الدعوة وتنفيذ أمر الله وطاعته .

( وانتظروا إنا منتظرون ) أى وانتظروا بنا ماتتمنونه من انتهاء أمرنا إماموت أو غيره مما تحدثون به أنفسكم كما حكى الله عنهم فى قوله : « أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمُنُونِ » إنا منتظرون أن ينزل بكم مثل ما نزل بأمتالكم من عقابه تعالى بعذاب من عنده أو بأيدى المؤمنين ، وأن يكفل لنا النصر والغلبة وتكون كلمة الله هى العليا وكلمة الذين كفروا السفلى ، والله عزيز حكيم ، وقد أنجز وعده ونصر رسوله وأيده ، ونظير الآية قوله تعالى : « فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ » .

( والله غيب السموات والأرض ) أى إنه سبحانه يعلم كل ما هو غائب عن علمك أيها الرسول وعن علمهم ، مما هو فى السموات والأرض ، وهو المالك المتصرف فيه ، وهو العالم بكل ما سيقع فيهما والعالم بوقته الذى يقع فيه .

( وإليه يرجع الأمر كله ) فأمرهم لأمرهم راجع إليه ، وما شاء كان وما لم يشأ لم يكن .

( فاعبده وتوكل عليه ) أى وإذا كان أمر كل شىء يرجع إليه فاعبده بإخلاص الدين له وحده ، وادع إلى طاعته واتباع أمره بالحكمة والموعظة الحسنة ، وتوكل عليه فيما لا يدخل فى مُكِبَّتِكَ واستطاعتك مما ليس لك سبيل إلى الحصول عليه ، إذ لا يدخل تحت كسبك ولا تناله يدك . والتوكل لا يجدى نفعا بغير العبادة والأخذ بالأسباب المستطاعة ، وبدون ذلك يكون من التمنى الكاذب ، والعبادة لا تكمل إلا بالتوكل إذ به يكمل التوحيد والإخلاص له تعالى .

روى أحمد والترمذى وابن ماجه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال « الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت ، والعاجز من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله الأمانى » .  
وخلاصة ذلك — امثل ما أمرت به وداوم على التبليغ والدعوة وتوكل عليه فى سائر أمورك ولا تنال بالذين لا يؤمنون ولا يضيّق صدرك بهم .

( وما ربك بغافل عما تعملون ) أى وماربك بغافل عما تعمل أنت أيها النبي ومن اتبعك من المؤمنين من عبادته والتوكل عليه والصبر على أذى المشركين فيوفيكم جزاءكم في الدنيا والآخرة ، واما يعمل المشركون من الكيد لكم ما استطاعوا إلى ذلك سبيلا وسيجزئهم على أعمالهم يوم تجزى كل نفس بما كسبت ، وقد صدق الله وعده ، ونصر عبده ، وأظهر دينه على الدين كله .

ربنا لاتزع قلوبنا بعد إذ هديتنا وهب لنا من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب ، وصل ربنا على خير خالقك محمد وعلى آله وصحبه إلى يوم الدين ، والحمد لله رب العالمين .

### بيان بإجمال للمقاصد الدينية التي حوتها هذه السورة

قد اشتملت هذه السورة على ما اشتملت عليه سابقتها من أصول الدين ومبادئه العامة التي لا يكون المؤمن مؤمنا حقا إلا إذا سلك سبيلها ونهج نهجها ، ومن ذلك :

#### (١) التوحيد وهو ضربان :

(أ) توحيد الألوهية - وهو أول مادعا إليه محمد صلى الله عليه وسلم ودعا إليه كل رسول قبله ، وهو عبادته تعالى وحده وعدم عبادة أحد معه كما قال : « أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ » فعبادة غيره من الأصنام كحجر وشجر وكوكب أو بشر ولى أو نبي أو شيطان أو ملاك إذا توجه العبد إليها توجهها تعبديا ابتغاء النفع أو كشف الضر في غير الأسباب التي سخرها الله لجميع الناس - كل ذلك كفر لافرق بينه وبين عبادة الأصنام أو الأوثان إذ جميع ما عدا الله فهو عبد وملك له لا يَتَوَجَّهُ بالعبادة إليه .

(ب) توحيد الربوبية - أى اعتقاد أن الله وحده هو الخالق المدبر لهذا الكون والمتصرف فيه على مقتضى حكمته ونظام سنته وتسخره الأسباب لمن شاء بما شاء ، وكان أكثر المشركين من العرب ومن قبلهم يؤمنون بأن الرب الخالق المدبر واحد ، ولكن يقولون بتعدد الآلهة التي يُتَقَرَّبُ بها إليه توسلا وطلبنا للشفاة عنده .

(٢) إثبات رسالته صلى الله عليه وسلم بالقرآن بتحديدهم بالإتيان بعشر سور مثله

مفتريات ودعوة من استطاعوا من دون الله لمظاهرهم وإعانتهم على الإتيان بها إن كانوا صادقين ، وقوله بعد ذلك : « فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ » وما جاء فى قوله : « تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا » .

(٣) جاءت آيات البعث والجزاء فى القرآن لدعوة المشركين إلى الإيمان والاستدلال بها على قدرة الخالق ، ولتذكير المؤمنين به للترغيب والترهيب والموعظة والجزاء كما جاء فى قوله : « إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ » وقوله : « وَلَئِنْ قُلْتَ إِنَّكُمْ مَبْعُوثُونَ مِنْ بَعْدِ الْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ » .

(٤) إهلاك الأمم بالظلم كما جاء فى قوله لخاتم رسله : « ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْقُرَى نَقُضُهُ عَلَيْكَ مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ » وقوله : « وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ » .

(٥) سنته تعالى فى ضلال الناس وغوايتهم - بأن يكونا بارتكاب أسبابهما من الأعمال الاختيارية والإصرار عليها إلى أن تتمكن من صاحبها وتحيط به خطيئته حتى يفقد الاستعداد للهدى والرشاد .

(٦) من طباع البشر العجل والاستعجال لما يَطْلُب من النفع والخير وما يُنْذِرُ به من الشر كما قال : « وَلَوْ يُعَجِّلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتَعِجَلَهُمْ بِالْخَيْرِ لَاقْضَى إِلَيْهِمْ أَجْلُهُمْ » .

(٧) سنته تعالى فى تكوين الخلق وأنه كان أطوارا فى أزمنة مختلفة بنظام محكم ولم يكن شىء منه فجائيا بلا تقدير ولا ترتيب كما قال تعالى : « وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ » فكلمة الخلق معناها التقدير المحكم الذى تكون فيه الأشياء على مقادير متناسبة ثم أريد بها الإيجاد التقديرى ؛ فالسماوات السبع

المرئية للناظرين والأجرام السماوية قائمة بسنن دقيقة النظام ، وما فيها من البسائط والمركبات الغازية والسائلة والجامدة كذلك ، والكون في جملة قائم بسنة عامة في ربط بعضه ببعض وحفظ نظامه ، بأن يبني بعضه على بعض وهو ما يسميه العلماء الجاذبية العامة والجاذبية الخاصة .

(٨) إن الطغيان والركون إلى الظالمين من أمهات الرذائل كما قال : « وَلَا تَطْفُوا إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ . وَلَا تَرَكُنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ » .

(٩) الاختلاف في طبائع البشر ، فيه فوائد ومنافع علمية وعملية لا تظهر مزاياه بدونها ، وفيه مضار وشرور أكبرها التفرق والتعادي به ، وقد شرع الله لهم الدين لتكميل فطرتهم والحكم بينهم فيما اختلفوا فيه بكتابه الذي لا مجال فيه للاختلاف ، فاستحق الذين يحكمونه فيما يتنازعون فيه رحمته وثوابه ، والذين يختلفون فيه سخطه وعقابه .

(١٠) اتباع الإتراف وما فيه من الفساد والإجرام - ذلك أن مثار الظلم والإجرام الموجب لهلاك الأمم هو اتباع أكثرها لما أترفوا فيه من أسباب النعيم والشهوات واللذات ، والمترفون هم مفسدو الأمم ومهلكوها .

وقد علم هذا المهتدون الأولون بالقرآن من الخلفاء الراشدين والسلف الصالحين فكانوا مثلاً صالحاً في الاعتدال في المعيشة أو تغليب جانب الخشونة والشدة على الإتراف والنعمة ففتحوا الأمصار وأقاموا دولة عز على التاريخ أن يقيم مثلها باتباع هدى القرآن وبيان السنة له وبذلك خرجوا من ظلمات الجهالة إلى نور العلم والعرفان ، ثم أضاعها من خلف من بعدهم من متبعي الإتراف ، وكيف ضلوا بعد أن استفادوا القنون والعلوم والملك والسلطان ، والله الأمر من قبل ومن بعد .

(١١) إقامة الصلاة في أوقاتها من الليل والنهار ، لأن الحسنات يذهبن السيئات ، وأعظم الحسنات الروحية الصلاة لما فيها من تطهير النفس وتزكية الروح .

(١٢) النهى عن الفساد فى الأرض ، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وهما سياج الدين والأخلاق والآداب .

(١٣) سننه تعالى فى اختبار البشر لإحسان أعمالهم كما قال : « لِيَبْلُوكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا » .

(١٤) أول أتباع الرسل والمصلحين هم الفقراء كما حكى عن قوم نوح « وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَادُوا أَنْ يُبَادُوا بِرَأْيِ » .

(١٥) التنازع بين رجال المال ورجال الإصلاح فى حرية الكسب المطلقة أو تقييد الكسب بالحلال ومراعاة الفضيلة .

(١٦) من سننه تعالى جعل العاقبة للمتقين وذلك هو الأساس الأعظم فى فوز الجماعات الدينية والسياسية والأمم والشعوب فى مقاصدها وغلبها لخصومها ومناوئتها .

(١٧) بيان أن الاختلاف فى الدين ضرورى للعباد كما قال : « وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ تَخْتَلَفِينَ إِلَّا مِنْ رَحْمَةِ رَبِّكَ » .

(١٨) بيان أن نهى أولى الأحلام عن الفساد يحفظ الأمة من الهلاك كما قال :

« فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ أُولُو بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ »

## تقدمة لتفسير سورة يوسف

رأينا أن تقدّم لك أيها القارئ صورة موجزة تبين لك حال هذا النبي الكريم والعبرة من ذكر قصته في القرآن العظيم ، لتكون ذكراً للذاكرين ، وسلوة للقارئين والسامعين .

### يوسف الصديق : مثل كامل في عفته

يوسف عليه السلام آية خالدة على وجه الدهر ، تتلى في صحائف الكون بكرة وعشيا ، تفسر طيب نجاره وطهارة إزاره ، وعفته في شبابه ، وقوته في دينه ، وإيثاره لآخرته على دنياه ، وأفضل هداية تمثل للنساء والرجال المثل العليا في العفة والصيانة التي لا تتم لأحد من البشر إلا بصدق الإيمان بالله ومراقبته له في السر والعلن .

وسورته منقبة عظي له ، وآية بينة في إثبات عصمته ، وأفضل مثل على يقتدى به النساء فالرجال ، فيتلاوتها يشعر القارئ بما للشهوة الخبيسة على النفس من سلطان ويسمع بأذنه تغلب الفضيلة في المؤمن على كل رذيلة ، بقوة الإرادة ووازع الشرف والعصمة ؛ فقيها أحسن الأسوة للمؤمنين من الرجال والنساء ، فيها قصة شاب كان من أجل الناس صورة ، وأكملهم بنية ، يخلو بامرأة ذات منصب وسلطان وهي سيدة له وهو عبدها ، يحملها الافتتان بجماله على أن تذلل نفسها له ، وتخون بعلمها فتراوده عن نفسه ( وقد جرت العادة حتى في الطبقات الدنيا منزلة وتربية أن يكون النساء مطلوبات لاطالبات ) فيسمعها من حكمته ، ويربها من كماله وعفته ما هو أفضل درس في الإيمان بالله والاعتصام بمجبه المتين ، وفي حفظه أمانة سيده الذي أحسن مثواه فيقول : « إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ » فتشعر حينئذ بالذل والمهانة ، والتفریط في الشرف والصيانة ، وتحقير مقام السيادة والكرامة .

إلا أن فيها أعظم دليل على صبره وحلمه وأمانته وعدله ، وحكمته وعلمه ، وعفوه وإحسانه ، فكفي شاهدا على صبره أن إخوته حسدوه فألقوه في غيابة الحب وأخرجته

السيارة وباعوه بيع العبيد ، وكادت له امرأة العزيز فزُجَّ في السجن فصبر على أذى الإخوة وكيد امرأة العزيز ومكر النسوة ، إذ علم مافى الفاحشة من مفسد ، ومافى العدل والإحسان من منافع ومصالح ، فآثر الأعلى على الأدنى فاختر عقوبة الدنيا بالسجن على ارتكاب الإثم ، وكانت العاقبة أن نجَّاه الله ورفع قدره ، وأذل العزيز وامرأته ، وأقرت المرأة والنسوة ببراءته ، ومكَّن له في الأرض وكانت عاقبته النصر ، والمملك والحكم ، والعاقبة للمتقين ، قال سبحانه : « وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَّبِعُونَ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ، وَلَا أَجْرَ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ » .

وأما عدله وأمانته وعلمه وحكمته فقد ظهرت جلياً حين تولى الحكم في مصر أيام السبع السنين العجاف التي أكلت الحرث والنسل وكادت توقع البلاد في المجاعات ، ثم الهلاك المحقق لولا حكمته وعدله بين الناس والسير بينهم بالسوية وعلى الصراط المستقيم بلا جنف ولا ميل مع الهوى .

### مافى قصص يوسف من عبرة

إن في هذه القصة لعبرةً أئماً عبرة لعليّة القوم وساداتهم ، رجالهم ونسأهم ، مجنَّاهم وأعفأهم ، من نساء ورجال ، فإن امرأة العزيز لم تكن من قبل غويةً ولا كانت في سيرتها غير عادية ، لكنها ابتليت بحب هذا الشاب الفاتن الذي وضعه عزيز مصر في قصره ، وخطى بينه وبين أهله ، فأذلت نفسها له ، بمرادته عن نفسه فاستعصم وأبى وآثر مرضاة ربه ، فشاع في مصر دورها وقصورها ذمها له ، وإباؤه عليها كما قال سبحانه : « وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَنْ نَفْسِهِ » .

وقد ذكرناها بالوصف ( امرأة العزيز ) دون الاسم الصريح استعظاما لهذا الأمر منها ، ولاسيا وزوجها عزيز مصر أو رئيس حكومتها ، وقد طلبت الفاحشة من مملوكها

وفتاها الذى هو فى بيتها وتحت كنفها ، وذلك أبيض لوقوعها منها، وهى السيدة وهو المملوك وهو التابع وهى المتبوعة ، وقد جرت العادة بأن نفوس النسوة تعزف عن مثل هذه الدناءة ولا ترضى لنفسها بهذه الذلة التى تشعر بالمساواة لا بالسيادة ، وبالضعة لا بالعظمة والله فى خلقه شئون .

وقد تضمن وصف النسوة لها بهذا الوصف أنها لم تقصد فى حبها ولا فى طلبها .  
أما الأولى فقولهن فيها : « قَدْ شَفَّهَهَا حُبًّا » أى قد وصل حبه إلى شغاف قلبها ( الغشاء المحيط به ) وغاض فى سويدائه كما قال شاعرهم :

الله يعلم أن حَبِّكَ مِنِّي فى سواد الفؤاد وسط الشغاف

وأما الثانى فقولهن : « تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَنْ نَفْسِهِ » .

فلما سمعت بهذا المكر القولى قابلتهن عليه بمكر فعلى فقد جمعتهن وأخرجته عليهن ، فلم يشعرن إلا وأحسن خلق الله قد طلع عليهن بفته ، فراعهن ذلك الحسن الفتان ، وفى أيديهن مدى يقطعن بها مما يأكلنه فقطعن أيديهن وهن لا يشعرن بما فعلن مأخوذات بذلك الحسن كما جاء فى قوله سبحانه : « فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ . قَالَتْ فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ وَلَقَدْ رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ ، وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَا أَمَرَهُ لَيَسْجُنَنَّ وَلَيَكُونًا مِنَ الصَّاغِرِينَ » .

فلما هدته بالسجن والإذلال بعد أن هتك سترها وكشفت النسوة فى أمرها وتواطأن معها على كيدها - آثر عليه السلام الاعتقال فى السجن على ما يدعونه إليه من الفحش والخننا : « قَالَ رَبِّ السَّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ . فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ » .

وإنه ليستبين من هذا القصص أن امرأة العزيز كانت مالكة لقياد زوجها الوزير الكبير، تصرفه كيف شاءت وشاء لها الهوى، إذ كان فاقدا للغيرة كأمثاله من كبراء الدنيا صغار الأنفس عبيد الشهوات.

قال في الكشف عند ذكر مارأوا من الشواهد الدالة على براءته: وما كان ذلك إلا باستنزال المرأة لزوجها، وقتلها منه في الذروة والغارب، وكان مطوعة لها، وجملا ذلولا زمامه في يدها، حتى أنساه ذلك ماعين من الآيات وعمل برأيها في سجنه لإلحاق الصغار به كما أوعده، وذلك لما أيست من طاعته، وطمعت في أن يذلل السجين ويسخره لها هـ.

وإننا نستخلص من هذه القصة الأمور التالية:

- (١) أن النقم قد تكون ذريعة لكثير من النعم، ففي بدء القصة أحداث كلها أتراح، أعقبها نتائج كلها أفراح.
- (٢) أن الإخوة لأب قد توجد بينهم ضغائن وأحقاد ربما تصل إلى تمنى الموت أو الهلاك أو الجوائح التي تكون مصدر النكبات والمصائب.
- (٣) أن العفة والأمانة والاستقامة تكون مصدر الخير والبركة لمن تحلى بها، والشواهد فيها واضحة، والعبرة منها ماثلة، لمن اعتبر وتدبر ونظر بعين الناقد البصير.
- (٤) إن أسها ودعامتها هو خلوة الرجل بالمرأة؛ فهي التي أثارت طبيعتها وأفضت بها إلى إشباع أنوثتها، والرجوع إلى هواها وغريزتها، ومن أجل هذا حرم الدين خلوة الرجل بالمرأة وسفرها بغير محرم، وفي الحديث « ما اجتمع رجل وامرأة إلا والشيطان ثالثهما ».

وإننا نرى في العصر الحاضر أن الداء الدوى، والفساد الخلقى، الذي وصل إلى الغاية (وكلنا نلص آثاره، ونشاهد بلواه) مابلغ إلى ما نرى إلا باختلاط الرجال بالنساء في المراقص والملاهي، والاشتراك معهم في المفاصد والمعاصي كعاقرة المحور، وحب القمار في أندية الخمرى والعار، وشبابة النساء مع الرجال في الحمامات المشتركة.

وبعد فهل لهذه البلوى من يفرّج كربتها ، وهل لهذا الليل من يزيل ظلامه ، وهل لهذه الجراح من آس وهل لهذه الفوضى من علاج ، وهذه الطامة من يقوم بحمل عبئها عن الأمة ويكون فيه من الشجاعة ما يجعله يرفع الصوت عالياً بالزوع عن تلك الغواية ، ويرد أمر المجتمع والحرص على آدابه إلى ما قرره الدين وسار عليه سلف المسلمين المتقين ، فيصلح أمره وتزهو الفضيلة وتنشأ نابتة جديدة تقوم على حراسة الدين في بلاد المسلمين ، والله الأمر من قبل ومن بعد .

هدانا الله إلى سبيل الفلاح ، وسدد خطانا إلى طريق النجاح ، إنه نعم المولى ونعم النصير .